صوتان وجرح واحد

دراسة في شعر كمال ناصر

سنابل الكتاب
٥ ش صبرى أبو علم
باب اللوق- القاهرة

الإدارة:
(+٢٠٢) ٢٣ ٩٢ ٦٥ ٩٣
(+٢٠٢) ٠١٠٠١٠٩٤٣٠٢
المكتبة:
(+٢٠٢) ٢٣ ٩٣ ٥٦ ٥٦

E-mail
Sanabil_bookshop90@yahoo.com
Ahmed_mmorgan@yahoo.com
Face: sanabil bookshop

المدير العام
أحمد مرجان

مؤسسة الطويل للنشر والدراسات
٠١٠٠١٥٠١١٤٥
web.:www.altawiel.com
e-mail: m_altawiel@yahoo.com

اسم الكتاب:
صوتان وجرح واحد
دراسة فى شعر كمال ناصر

المؤلف:
رضا الطويل

الغلاف:
حسين جبيل

الطبعة الثانية ٢٠١٧

الناشر:
سنابل الكتاب

رقم الإيداع: ٢١٦١٤ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى: 978-977-5255-28-0

حقوق الطبع محفوظة

صوتان وجرح واحد

دراسة في شعر كمال ناصر

رضا الطويل

إلى:

فاروق عبد القادر

وعبد القادر ياسين

إعزازًا وتقديرًا..،،

رضا الطويل

زمـن الشهـادة

الإنسان والقضية

"إن أحلك ساعات الليل هي
الساعة التي تسبق الفجر".
(ك . ن)

خلال ساعتين ونصف من العاشر من أبريل / نيسان ١٩٧٣، تمكن فريق اغتيالات إسرائيلي – أكثر من ثلاثين عسكريا – في هجوم على مدينتي بيروت وصيدا، من قتل ثلاثة من كبار قادة المقاومة الفلسطينية، فعلى مدى هذه الدقائق المائة والخمسين، اغتيل كمال ناصر – الشاعر الأديب الصحفي المناضل السياسي– المتحدث الرسمي باسم المقاومة ورئيس تحرير فلسطين الثورة، ومحمد يوسف النجار، مسئول الشئون السياسية بمنظمة التحرير الفلسطينية، وكمال عدوان عضو المنظمة، كما أهدرت خلال هذه الدقائق حياة ثلاثة عشر مواطنا لبنانيا وفلسطينيا، وأصيب تسعة وعشرون آخرون إصابات قاتلة.

يأتي العاشر من أبريل بعد مضى تسعة أشهر ويومين على اغتيال غسان كنفاني في ١٩٧٢/٧/٨. تسعة أشهر دامية وقعت جرائمها الخسيسة على خريطة العالم، وكانت حمأة القتل قبل اغتيال كمال ناصر بثمانية أشهر وعشرين يوما قد حاولت اغتيال د. أنيس صايغ، مدير

مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية في ١٩٧٢/٧/١٩. ونجحت بعدها في ١٩٧٢/١٠/١٧ في اغتيال وائل زغيتر، ممثل منظمة فتح في روما بروما، وأصيب محمود الهمشرى ممثل المنظمة بباريس في باريس في محاولة أخرى إصابة بالغة لم ينج منها؛ إذ استشهد متأثرا بجراحه في ١٩٧٣/١/٩، وكانت سلسلة الاغتيالات المكثفة التي بدأت بغسان كنفاني قد ذهبت فيمن ذهبت بهم أيضا من رجالات المقاومة وقادتها، ببشير أبو خير، ممثل فتح بقبرص، في نيقوسيا في ١٩٧٣/١/٢٥، أي قبل العاشر من أبريل بشهرين ونصف، كما امتدت هذه الجرائم إلى طرابلس الغرب – ليبيا – قبل ذلك التاريخ بخمسة أشهر ونصف في ١٩٧٢/١٠/٢٥ لتحاول اغتيال ممثل منظمة التحرير الفلسطينية – مصطفى عواد أبو زيد، فتصيبه إصابة قاسية تفقده إبصاره... إلخ.

لقد اعتبرت التحليلات السياسية اغتيال غسان كنفاني بداية لحرب سرية ينظمها ويقودها الميجور جنرال أهارون ياريف المستشار الخاص لرئيسة الوزراء الإسرائيلية – مائير – في ذلك الحين، بهدف تقليم قبضة المقاومة من أظافرها وقواها المحركة، ومما لا شك فيه أن هذه التحليلات لم تعن إلا بالنظر إلى مرحلة واحدة من مراحل الصراع الطويل بين العرب وإسرائيل، فهذه المذابح الصغرى لا تمثل رغم كثافتها وبشاعتها غير نقط دموية صغيرة على خريطة الصراع التي تمتد عميقا في غور السنوات الدامية إلى مذبحة دير ياسين في ١٩٤٨/٤/٩ وإلى ما قبل ذلك التاريخ بسنوات عديدة.

كما أن هذه التحليلات وإن أشارت إلى بصمات أصابع المخابرات الأمريكية الشديدة الوضوح، وبصمات المخابرات الأردنية الأقل وضوحا في مذبحة أبريل ١٩٧٣، فقد تغافلت في تبسيطها للأمور عن ربط المذبحة الصغرى بمذابح أيلول الأسود الكبرى ١٩٧٠ – ١٩٧١. التي قضت على عشرين ألف فلسطيني – أو يزيد، لم يكن كمال ناصر بأول الشهداء، ولم يكن بآخرهم، لم يكن غير شهيد واحد من بين آلاف الشهداء الذين ارتوت بدمائهم شجرة الحرية العجوز التي لم تثمر، وكان في كل عمر وبكل عمره أحد الهنود الحمر العرب، كما كان يطلق على بني قومه.

سنوات المراهقة:

في عام ١٩٣٦ حملت الموجة الثورية – التي استمرت زهاء الثلاث سنين، في اجتياحها لفلسطين – كمال ناصر بسنواته الاحدى عشرة إلى خضم النضال الوطني، فاشترك تلميذ بيرزيت مع غيره من التلاميذ في المظاهرات العديدة التي انطلقت من أفنية المدارس إلى الطرقات لتعلن رفضها للاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني.

وفي إحدى هذه المظاهرات ألقى البوليس البريطاني القبض على كمال ناصر، وأرسلوه بصحبة رجلين من رجالهم إلى والده حاكم رام الله في ذلك الحين، وعندما سألهما عما إذا كانا لم يجدا أحدا غير ابنه من بين آلاف المتظاهرين ليلقيا القبض عليه، أجاباه بأدب جم بأنه هو الذي كان يقودها.

وليس بملفت للنظر أن تنوء سنوات الصبا والتلمذة بأعباء الكفاح، ففي أعقاب هبة البراق ١٩٢٩، دب النشاط بأوصال الحركة الوطنية، ومارت فلسطين بالحيوية والثورة، طيلة السنوات العشر التي تلت الهبة.

ونشطت الحركة الطلابية تعبيرا عن هذا النشاط الوطني فعقد الطلبة أول مؤتمر لهم بعد الثورة مباشرة، وعقد المؤتمر الثاني في الصيف التالي. وحقيقة لم يكن عمر كمال ناصر وقتئذ يسمح له بالبروز في أمثال هذه المؤتمرات أو غيرها. أو المساهمة في نشاطها، ومع ذلك لا يجب أن يغيب عن الذهن أن المؤتمرات الطلابية نفسها أتت معبرة عن نشاط التلاميذ في المدارس، وليست موجهة لهذا النشاط، وكان لطلاب المدارس ولغيرهم من الصبيان والأولاد يد في المظاهرات واستمرار الإضرابات حيث كانوا في كثير من الأوقات نواة المظاهرات الارتجالية غير المنظمة.

إن شعلة الكفاح الوطني التي ظلت تضيء طيلة السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الثانية وفرت لتلاميذ فلسطين نخبة من خيرة المعلمين الثوار، وتلقت أجيال الطلبة التوجيه الكافي والتوعية الثورية اللازمة في أتون التفاعل الثوري في بوتقة فلسطين المشتعلة.

ولا غرو أن يهتم المعلمون اهتمامهم الزائد بالأجيال الشابة، والتعليم أحد محكات التحدى لحكومة الانتداب البريطاني، ولسياسة التعليم التي اتبعتها، كما أن التعليم أيضا أحد مسالك التسابق مع الوافدين الغرباء الصهاينة، وهذا ما يبدو ملموسا وواضحا في اضطراد عدد المدارس الأهلية الحرة بصفة منتظمة منذ عام ١٩٢٠، وفي إقبال

الأهالي في المدن والقرى على التبرع لإنشاء هذه المدارس. ويكفى أن نذكر للاستدلال أن بين هؤلاء المعلمين الشيخ عز الدين القسام والشاعرين إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود، وأن وجود مثل هؤلاء المعلمين الثوار بالقرب من صفوف التلاميذ كان مدعاة لتخوف حكومة الانتداب من تفشى الروح الثورية، وخاصة أن التقارير السرية التي توالي وصولها لأيديها امتلأت بالإشارات إلى ازدياد روح العداء والتنظيمات السرية الموجهة ضد الانتداب البريطاني. مما زاد من قلق الحكومة من هذه الظاهرة، ودفعها للتشريع عامدة لمنع معلمي المعارف، وموظفيها من العمل في التنظيمات الوطنية، وهو التشريع نفسه الذى دفع الشاعر عبد الرحيم محمود إلى الاستقالة عام ١٩٣٦ للاشتراك في النضال، وعلى الرغم من مناهضة حكومة الاستعمار لنشاط معلمى المدارس في المحيط الوطني، فإن هؤلاء استمروا في إيقاد الحماس وترسيخه في صدور التلاميذ وفي إذكاء روح العداء للاستعمار والصهيونية بشتى الطرق ومختلف السبل.

وإذا كانت المدرسة بحركة الطلاب وثورية المعلمين، قد وضعت أقدام كمال ناصر على طريق الكفاح الذى استمر يغز السير فوق أشواكه إلى أن استشهد، فلقد ساهم المترل في الدنو به من المأساة، فلقد عرفت أقدام الشريدين والمطرودين من أراضيهم والعاطلين من العمال – الطريق إلى باب دار آل ناصر العريقة التماسا لرحمة جده القس الانجليلي أو خبرة أبيه ضابط البوليس. وتعرف كمال ناصر في جراحهم أبعاد المأساة، التي لم يكف الاستعمار البريطاني عن نسجها لبنى قومه،

منذ أن دخل الجنرال اللنبي القدس (١٩١٧)، مردفا خلفه فوق صهوة الأسد الإنجليزي الأطماع الصهيونية، بمقتضى وعد بلفور. ويذكر كمال ناصر فيما بعد مكانة والده ونشاطه واتجاهاته الوطنية بكثير من الفخر والاعتزاز وهو ضابط الشرطة الذى عاقبته سلطات الانتداب أكثر من مرة على مشاعره الوطنية وتعاطفه مع الفلاحين المطرودين من أراضيهم، بإبعاده مرتين للعمل بالمناطق النائية...

بعدنـــا يا أبي تصـــدع حـــي ...
قـــد ألفنـــاه مشـــرقا بالرجـــال
وانحنى ملعب وأطـــرق ســـفح ...
وتعـــرت بـــالهم خضـــر الـــتلال
بعدنا ... بعدنا أتذكر زهـــوى ...
وفتـــوتى وعـــزتي واختيـــالي..
يوم جاء الثـــوار بيتـــك لـــيلا ...
ملء أجفانهم بريق النـــزال.
لذ لي أن أراك تحنو على الجـــرح...
وتـــدعو للبـــذل والاحتمـــال.
لذ لي أن أراك تغشـــى المنايـــا...
وبقايـــا يـــديك في الأغـــلال
ذاك عهدى بأول الحب للـــدار...
ومعنى العلى ومعنـــى النضـــال.

ذاك عهدى بأول النار تسـرى ...
في عروقـى نـورا وفي أوصـالي.
ذاك عهدى بأول اليأس والبذل ...
وسـر الفـدا وروح القتـال.
ذاك عهدى بأول المجـد يزكـو...
بالضـحايا وروعـة الآمـال.
يافعـا شـدا مـا تنـازعنى....
الشوق طموحا إلى اقتحام المعالى.

دارت حياة كمال ناصر سواء في المترل أو المدرسة في فلك حركة أكبر من مدارك الطفولة البسيطة، وإن كانت بلا أدني شك قد أكسبته بالخبرات التي مكنته من بلورة كثير من قناعاته السياسية فيما بعد، ولا شك أن جحافل الفلاحين المطرودين من أراضيهم وجيوش المتعطلين كانت مدعاة لتساؤلات الطفولة في تحسسها البرىء للعالم المحيط ومحاولة فهمه.

وربما لم يستطع أن يستوعب الإجابات في حينها، واختزنت ذاكرته هذه الأحداث إلى أن استطاع بعد أمد غير طويل أن يجد القراءة الصحيحة لها، وأن يضع كلا منها في المكان السليم على سياق تفكيره.

ولا يجوز أن نبالغ في تصوراتنا عن مدركاته في تلك الفترة إلى الحد الذي نذهب فيه إلى حدود التقدير الزائد لطفولة أعجوبة متفردة في نبوغها، وهو التصور الذى سيدفعنا إلى محاسبته محاسبة كاملى المسئولية. وكل ما يجب أن يكون واضحا للذهن أن ظروف نشأة كمال ناصر والعوامل الواقعية التي تعرض لها إبان طفولته ومراهقته كان لها أثر في نضجه المبكر مثله في ذلك مثل الأجيال الفلسطينية التي أسرعت جمرة الاحتلال البريطاني واستراتيجية الاستيطان الصهيوني بانضاجها قبل الأوان.

ولا تعنى مساهمته في مظاهرات الطلبة والأعمال الثورية التي دأب التلاميذ على القيام بها مساعدة لثوار ١٩٣٦ كنقل الذخائر والمؤن بين فصائل الكفاح المسلح، أو قطع الطرق وتعطيل المواصلات، إن مشاعره الوطنية قد استقرت بوعي مع التيار القومي اللبرالي، الذي تبنته العناصر البرجوازية ذات الدور المتزايد في حركة النضال الوطني، والتي رفضت الأساليب العتيقة للقيادة التقليدية لكبار الملاك.

ففي قصيدة فلسطين الأبية – في الثورة الفلسطينية الكبرى وهي إحدى قصائده المبكرة.. تتعالى أصداء واضحة المعالم لأيديولوجية كبار الملاك وتصوراتها السياسية، ولا يخفى على أحد مساهمة هذه الطبقة في حرف النضال الوطني وتوجيهه بمنطق ديني إلى عداء سافر لليهود وليس باتجاه العدو الرئيسي للشعب الفلسطيني المتمثل في الاستعمار البريطاني، وترتد هذه القصيدة بكمال ناصر إلى الموقع الفكرى لطبقة الوجهاء

الموالين بواقع مصالحهم للاحتلال ولحكومة الانتداب،.. ولا يستطيع كمال ناصر على الرغم من أصوله البرجوازية وتربيته على أسسها الفكرية أن ينجو من الشراك فيهوى بحكم حداثته، وعدم تمرسه الفكري، إلى وهدة التيار الفكرى المتخلف.

يا مكدونالد ترى تناسيت المودة والعهود...
أيام كنت لنا الحليف وكنت ذا الخل الودود...
ياليت شعرى هل عفت تلك الوثائق والوعود...
إن كان جن بها الزمان فسوف يعقل من جديد...
والدهر يجتاح الكرام كأنه الخصم العنيد...
لابد للتاريخ يوما أن يعود وأن يسود...
يا دولة التيمس أبعدى عنا أذى الشعب الطريد...
ودعى العروبة تسترد ذخائر المجد التليد...
فيقال ساد الإنجليز بعدلهم لا بالوعيد...

❖❖❖

أبدى كمال ناصر في هذه الفترة استعدادا أدبيا، كما كان عاشقا للموسيقى، وجرت أصابعه برشاقة وحساسية فنية على أصابع البيانو وملأ بأصواته المتناغمة أجواء المترل، وبرهافة شعور بدأ ينظم قصائده ويعزفها، ويغنيها بصوت جميل لأترابه زملاء الدراسة من تلاميذ بيرزيت، البلدة والمدرسة.

وهيأت المؤتمرات والندوات الأدبية والمجلات التي كانت تموج بها حلقات الدراسة المناخ المناسب لنمو النبت الفني المتوثب للحياة، وفي الثالثة عشرة فاز بالجائزة الأولى في المسابقة الأدبية السنوية، وما أكثر هذه المسابقات التي كانت تعقد في ذلك الحين، والتي خلقت الحافز القوى للتنافس والنضج، كانت فلسطين تتنفس عن بكرة أبيها للحضارة متحدية سنوات الكبت العثماني المميت، مقاومة المحتل الجديد، وكالأم الواعية أغدقت الرعاية على أولادها الصغار زخر مستقبلها، وكنزها الثمين، وما لا شك فيه أن حيوية الشباب بدأت تتدفق في شرايين الأم العجوز فتنبض بالصحة والعافية وتضج بالحياة ولا أدل على ذلك من أن مدينة القدس وحدها أصدرت ابتداء من عام ١٩٢٠ إلى أواخر ١٩٤٨ ما لا يقل عن ستين جريدة ومجلة في السياسة والأدب والعلم والدين.

لقد مثل التعليم أحد محاور التسابق بين العرب والدخلاء. وفي الوقت الذى سعى الانتداب البريطاني والمستوطنون الصهيونيون لانتهاك مقدساتها. كان لابد لها أن تشرع أسلحتها للمقاومة وأن تعلن حالة التأهب واليقظة،... وهذا ما بدأت تلجأ إليه وتنادى به.

فلم يكن غريبا إذن أن يفوز كمال ناصر أو غيره في مثل هذه السن، فلقد شاءت إرادة الإمبريالية العالمية وعلى رأسها الإمبريالية البريطانية أن تحرم أطفال فلسطين ليس من ديارهم فقط، وإنما من طفولتهم، وقدر على هؤلاء الأطفال الذين سيقاسون الأهوال منذ هذا

التاريخ، إلى أن يستشهدوا في المستقبل القريب، أو البعيد أن يتكبدوا مزيدا من الآلام تلو الآلام، وأن يقطعوا الطريق الوعر المفروش بالأشواك إلى عارضات الصليب، كانت الخطة قد وضعت وبدأ التنفيذ، ولم يكن هناك وقت ليستغرق مشوار النضوج والرجولة زمنه المعتاد، وعبء المقاومة والتحدى لا يرحم، فالمستبد لا ينتظر،... وكان على الناموس الطبيعي أن يعدل كثيرا من القوانين مجاريا واقع الأرض المنهوبة.

وبالنسبة لمراهق في الثالثة عشرة، فإن قصيدته التي نالت الجائزة الأولى في مباراة الإنتاج الشعري التي أقيمت في مدرسة بيرزيت، تقدم الدليل الواضح على ظاهرة النضج المبكرة ليس بمشاعرها المكتملة، فقط، وإنما بمستواها الفني.

عينـــاك ســـر كـــآبتى عينـــاك

عرضا صرعت بلحظها الفتاك.

هيهات أن يبرا العليل من الهـــوى

حكم الهـــوى فوقعت في الأشواك.

أرسلت سهما كـــان فيـــه منـــيتى

فسرى كمسرى النور في الأسلاك.

.....

شاهدتـــهـــا والنفس لـــــج بهـــا

الهوى والقلب مطرد التأوه شاك.

والليل قد لبس الحـــداد كراهـــب
سئم العبادة، ضل في الاشراك.
والبدر قد تخـــذ الغمامـــة معطفـــا
يختال تيها في ذرى الأفلاك

.....

ومن الطبيعى أن تتضمن القصيدة ملاحظات ناضجة سابقة لأوانها، كتلك الخاصة بالراهب الذى سئم العبادة، فلم يعد مسلمة من المسلمات الغامضة التي يسلم بها الوعى الصبيانى تسليما، بل أصبح موضوعا يمارس الوعى عليه قدرا هائلا من التجريب واستخلاص النتائج والملاحظات.

وإذ كنا لا نستطيع أن نقارن بين هذه القصيدة التي فازت بالجائزة الأولى، وبين تلك التي فازت بالجائزة الثانية أو الثالثة.. ومجموع القصائد التي تقدمت للمسابقة، حيث أنها لم تقع تحت أيدينا، وربما لم يحتفظ بها أحد. فنعتقد أننا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إنها لا تقل نضجا واكتمالا فنيا عن قصيدة كمال ناصر، ولا تتفاوت كثيرا في مستواها الإدراكي أو الأدبي عنها.

إن ظاهرة النضج المبكر ظاهرة عامة وموضوعية، تنم عن إصرار الأرض والطبيعة على المقاومة ورفض الاستسلام، والاستعداد لمجابهة

محسوبة المخاطر، ومن منا لا يلتفت إلى هذه الظاهرة، التي تعلن عن نفسها بجلاء ووضوح لا يقبل التأويل أو التفكير ففيما بين عامي ١٩٠٥، ١٩٤١ هي كل عمر إبراهيم طوقان ومض نتاجه الشعرى وألهب عامة فلسطين ولم يكن قد تجاوز التاسعة عشرة من عمره بعد طالبا بالجامعة الأمريكية ببيروت.

أما عبد الرحيم محمود فتوهج كالوميض واختفى كالبرق، قضى الفترة من ١٩٢٨ – ١٩٣٢م.. تلميذا بمدرسة النجاح الثانوية ليلتحق بهيئة التدريس بعد تخرجه، ولم يكد يبلغ التاسعة عشرة ليستقيل ويلتحق بفصائل الكفاح المسلح إبّان ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦، ثم يفر إلى العراق بعد توقف الثورة ويلتحق هناك بالكلية الحربية... إلى ١٩٢٤. ولينضم فيما بعد إلى جيش الإنقاذ عائدًا لفلسطين ليستشهد في معركة الشجرة ١٣ يوليو ١٩٤٨ عن عمر لا يناهز عمر الزهرة. تاركا أثرا لا يمحى على امتداد الحياة الأدبية والثقافية.

وإذا كان بمقدور الأرقام أن تتحدث عن طوقان وعبد الرحيم وكمال ناصر وأضرابهم من الأسماء التي حققت لنفسها الشهرة. فإن الأرقام أيضا تستطيع إذا توافرت الإحصائيات اللازمة أن تتحدث عن هؤلاء الصبيان الشهداء الذين تساقطوا على ساحة الوغى والجهاد ضاربين باستشهادهم المثل على روح الرجولة المبكرة وقسوة المسئولية.

النكبة:

من بين ٥٤٩٧ طالبا وطالبة التحقوا بالجامعة الأمريكية ببيروت، فيما بين عامي ١٩٢٠ و١٩٤٦. كان كمال ناصر، الذى أنهى دراساته بمدرسة بيرزيت عام ١٩٤٢، وشأن جميع الطلاب المنتمين إلى البيوتات البرجوازية والاقطاعية شد الرحال إلى لبنان، نظرا لخلو فلسطين من التعليم الجامعي والدراسات العليا، فلم يكن أمامهم جميعا غير إتمام التعليم على نفقتهم الخاصة، في جامعات الدول العربية أو الأوربية.

وفي لبنان، صادف كمال ناصر مناخًا ثوريا لا يقل حرارة عن مناخ فلسطين الثورة الكبرى، كانت بيروت تنبض بالحركة والنضال ضد الانتداب الفرنسي، وتفاعل كمال ناصر بدمائه الفلسطينية مع النشاط الوطنى، فاستحق بجدارة سخط السلطات ففصلته نصف عام دراسي مع من اضطرت لفصلهم من الطلاب محاولة لإخماد شرارة الثورة المندلعة، وما كان بإمكانها أن تخمدها وانتهت سنوات التعليم الجامعي ببيروت ويعود كمال إلى فلسطين عام ١٩٤٥ حاصلا على ليسانس الآداب في العلوم السياسية لتواجهه فلسطين بوجه جديد.

أثمرت سياسة الإمبريالية البريطانية، وأورق النبت الغريب الذى زرعته عنوة بالأرض المقدسة، والذى تعهدته بالرعاية ووفرت له الظروف الملائمة كافة ليتسامق ويترعرع.

وأصبح بمقدور العائد إلى فلسطين عام ١٩٤٥ أن يلمح مخايل السياسة الإمبريالية ويشهد بمهارة عتاة الاستعمار البريطاني، للتغيير الذى طرأ على وضع اليهود في فلسطين ومن سيرهم الحثيث في طريق التبلور القومي.. كانت فلسطين تتحول من قطر ذي قومية واحدة هي القومية العربية وجماهير يهودية في حكم الأقلية، إلى قطر ثنائي القومية يعيش فيه شعبان العربي واليهودى، فيناهز عدد اليهود ال٠٠٠ر٦٦٠ ألف نسمة، كما كانت حصيلة التطور الاقتصادى مؤشرا بالغ الدلالة على تغلغل النبت الامبريالى في الواقع ورسوخه، فالقطاع الاقتصادى لليهود أصبح يتصدر النشاط الاقتصادى فبلغ عدد المنشأت اليهودية ١٩٠٧ منشأة برأسمال قدره ١٢ مليون جنيه في حين بلغ عدد المنشآت العربية ١٥٥٨ منشأة صغيرة لا يتجاوز رأسمالها ٢ مليون جنيه، كما أن مساهمة القطاع اليهودى في الناتج الاقتصادى جاوز ٢٩ مليون جنيه في حين لم يتجاوز الناتج العربى ٦ر٥ مليون جنيه.

وإذا كانت سنوات الحرب سنوات انتعاش بسبب نفقات القوات البريطانية المعسكرة في البلاد،وتعاظم حاجات المجهود الحربى، واضطرار بريطانيا إلى تعديل سياستها القديمة، من الإبقاء على البلاد سوقا لسلعها الصناعية إلى تمكين الصناعات المحلية من التطور لسد حاجات البلاد ومدها أيضا ببعض المتطلبات، فإن بريطانيا خصت القطاع اليهودى بمعظم البركة واستفادت المنشأة الصناعية للصهيونية من هذا الوضع نظرا لأنها أكثر تطورا. ولأنها بحكم الروابط التي تربطها بالإمبريالية البريطانية لم تتعرض إلى القدر ذاته من الضغوط والقيود التي تعرضت لها الصناعات العربية.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها إنجلترا لبناء الوطن القومي اليهودى، فلقد بدا واضحا أنها كدت وشقيت لغيرها، فالقيادة الصهيونية المتمرة لبناء دولة الأحلام بواقع إحساسها بالدور المتزايد للامبريالية الأمريكية بدأت تسعى للانضواء تحت جناح الولايات المتحدة.

وكان مؤتمر لجنة الطوارئ الأمريكية للشئون الصهيونية الذى عقد في فندق بالتيمور ١٩٤٢ أول تعبير علنى عن انتقال الصهيونية إلى أحضان الإمبريالية الأمريكية الفتية.

أما الحركة الوطنية لعرب فلسطين، فلقد بدأت تنبض بالحياة بعد أن اتسع نطاق الإرهاب الصهيوني عام ١٩٤٢، وأن اقتصر رد فعلها على البرقيات والعرائض والمؤتمرات الجماهيرية المستنكرة، كانت القيادات القديمة قد غادرت البلاد فرارا من الاعتقال والقمع بعد الثورة الكبرى، وذهب بعضهم وعلى رأسهم الحاج أمين الحسينى إلى برلين النازية، كما اعتقلت السلطات البريطانية آخرين وأبعدتهم إلى روديسيا. وتخاذل الباقون متهاودين مع بريطانيا ناشدين السلامة فعادوا إلى البلاد.

وتشكل المكتب العربي من مثقفى فلسطين المتبرجزين برئاسة موسى العلمى، متنبها إلى بوادر التغلغل الامبريالى الأمريكي، المتأهب للاستيلاء على ميراث الإمبريالية البريطانية، ودار محور نشاط المكتب العربى حول الدعوة إلى التعاون مع الإنجليز والأمريكان، والدعاية في أوساطهم، لكسب عطفهم على القضية الفلسطينية، وتجنب كل ما يؤدى إلى تشجيع أعمال الجهاد والقوة.

وبسبب التغير الطبقى الطارئ واتساع حجم الطبقة العاملة وتكتلها في المدن الكبرى واتحاد صفوفها تشكلت عصبة التحرر الوطنى خلال سنوات الحرب وبدأت تعمل تحت شعارات تأييد الحرب ضد النازية من ناحية والمطالبة بالحريات الديمقراطية وبالحقوق القومية من ناحية ثانية والمناداة بالاستقلال وإنشاء دولة فلسطينية ديمقراطية.

وفي عام ١٩٤٤ – ووفق في الإسكندرية على إنشاء الجامعة العربية، وبواقع قرار الجامعة بأن تختار مندوبا عربيا من فلسطين، للاشتراك في أعمال المجلس، إلى أن يتمتع فلسطين بممارسة استقلاله اختارت موسى العلمى، ممثلا لفلسطين في مباحثات إنشاء الجامعة.

وبقيام الجامعة العربية، لم يعد من الممكن استبعادها عن تطور القضية الفلسطينية، فبدأت تتدخل في عمليات بناء القيادة الوطنية وتؤثر في مهمتها، وإذا أخذ في الاعتبار أن أصابع الإمبريالية لم تكن بعيدة عن اللهو بأعضاء المنظمة العربية، استطعنا أن ندرك الآثار السلبية للجامعة العربية في تطورات القضية الفلسطينية، وهكذا اغتصب التضامن العربى في تجسيده التنظيمى دور الحركة الوطنية في فلسطين.

كانت هذه هي فلسطين ١٩٤٥ التي عاد إليها كمال ناصر، لينضم إلى صفوف الشباب العربى المثقف الذى توقع خيرا أو كل الخير في إنشاء الجامعة العربية، والذى خلب لبه الوحدوى مظهر التضامن العربي الذى بدت به المنظمة... فلم يتوصل إلى ما وراء الواجهة من فساد الارتباطات إلا فيما بعد... وبعد فوات الأوان.

التحق كمال ناصر بجريدة الوحدة وهي جريدة من جرائد عديدة تصدرها القدس كما بدأ دراسته للأدب العربي في مدرسة المطران جوبات وأيضا اتجه لدراسة القانون وتوالت كتاباته بجريدة الوحدة في اتجاه الضرورة لجبهة عربية مشتركة تواجه المشروع الصهيوني، وبذل جهدا خارقا وضائعا في الوقت نفسه ليجعل الحكومات العربية تشعر بأن عرب فلسطين بحاجة ماسة للمساعدة في مجابهتهم للصهيونية،.. واستحثهم ملحا أن يسرعوا بالاستعداد والتأهب للنـــزال.

ولم تلبث القضية الفلسطينية أن بدأت مرحلة جديدة.... بعد أن أقرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة مشروع التقسيم في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧. ونشبت الصدامات بين المواطنين العرب والمستوطنين اليهود... وأعيد تشكيل اللجان القومية لتنظيم الكفاح وتكونت فصائل المقاتلين من عرب فلسطين. وشكلت الهيئة العربية العليا جيش الجهاد المقدس. واتخذ عبد القادر الحسيني أحد أشهر قواد جيش الجهاد بيرزيت مقرا لإدارته العسكرية متمركزًا في بيت آل ناصر. وحتى أبريل ١٩٤٨ استطاعت الجماهير الفلسطينية المحافظة على وطنها ببطولة، وفي ٩ أبريل استشهد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل، ومنذ هذا التاريخ تداعت حركة الكفاح المسلح بفلسطين. بعد دخول الجيوش العربية التي لم تواجه الصهاينة بقدر ما واجهت العرب فانقضت على المناضلين تنزع أسلحتهم وتحول بينهم وبين القتال. وماذا ينتظر من جيش عربي قائده الأعلى الملك عبد الله، وقائد أحد جيوشه —

الأردني – جلوب باشا البريطاني، وماذا ينتظر من معركة تجرى وفق مخطط مرسوم وضع في واشنطن ولندن وتل أبيب.

في هذه الأيام بدأ الإيمان بالأنظمة والحكومات العربية يتبخر من صدر كمال ناصر، لقد شهد بنفسه مشهدا من المشاهد الهزلية المريرة،.. فلقد التحق بالجيش العراقي أثناء مروره على قريته في طريقه إلى المعركة، ورأى الجيوش العربية وهى تقف ظافرة على أبواب تل أبيب لتبدأ في التقهقر للخلف،.. فلم تكن الحكومات العربية جادة في دخولها المعركة إلا بالقدر الذى يضمن الحفاظ على المصالح البريطانية. ويحفظ عليها – هذه الحكومات – ماء وجهها أمام شعوبها.. كان دخول القوات العربية مناورة لا أكثر على خريطة التنافس بين المصالح البريطانية وأطماع الإمبريالية الأمريكية،.. وما إن تم الاتفاق بينها حتى بدأت القوات العربية تتراجع، وقبلت الأنظمة العميلة بالهدنة الثانية في ١٩٤٧/٧/١٨. واستمر توقيع اتفاقيات الهدنة مع إسرائيل فيما بين فبراير ويوليو ١٩٤٩.

أصبح كمال ناصر أحد رعايا التاج الهاشمي، وخرج من دخل من القوات العربية وأعلنت الهدنة، وبدأت إسرائيل تناقش في الحدود من جديد، على ضوء الخرائط التي وقعت في رودس.

"وقد يتركز الخلاف بين الصهاينة وبين بعض الدول العربية. وخاصة الأردن على ربع سنتيمتر على الخريطة...

إحدى هذه القصص المؤسفة يحكيها كمال ناصر في مذكراته التي نشرها بفلسطين الثورة – على صدوركم باقون". بعد انسحاب الجيش العراقي مباشرة هددت إسرائيل بالزحف على المثلث الخصيب، إن لم تسلم أراضيه كلها تقريبا، بموجب الخرائط المهورة بتوقيع الوفد الأردني المفاوض وطلبت لجنة الهدنة المشتركة، أن يجتمع وفد من إسرائيل وآخر من الأردن لبحث الأمر على الأرض وعلى الخرائط، وكلف لهذه المهمة عن الجانب العراقي اللواء أحمد صدقي الجندى، أحد قادة الجيش الأردني، وانتدب لمرافقته السيد أحمد الخليل وكان مساعدا للحاكم العسكرى في مدينة رام الله، وهو محام فلسطيني من حيفا، وكان في الجانب الإسرائيلي موشى ديان ومعه مجموعة من ضباط جيش الدفاع.

أصر أحمد الخليل على دعوة بعض الصحفيين المتمردين في تلك المرحلة، من الذين يهاجمون النظام، ويلقون عليه وعلى غيره من الأنظمة العربية مسئولية ضياع فلسطين، وأصر على دعوتهم، ليثبت أنه ذاهب للمراقبة، وليس للتوقيع، وكان حريصا هو وغيره من الفلسطينيين بادئ ذي بدء أن لا يلوثوا بما حدث، لكن سرعان ما جرف النظام عشرات بل مئات من طبقته فاستسلموا للنظام، ودعموه وحكموه.

وذهب كمال بين من ذهب من الصحفيين. كانت المفاوضات مضحكة، وكان موشى ديان يتكلم من موقع القوة ويقول هذه حدودنا على الخارطة. التي وقعتم عليها، ومعنى ذلك أن أرض المثلث هذه لنا وعليكم الانسحاب.

"وكان ببساطة تصل حد الغباء وحدة المأساة يرد اللواء أحمد صدقى الجندى، أننا لم نكن نعرف أن كل هذه الأرض العربية ستوهب لكم، هذه الأرض ما زال يزرعها أبناؤها وهم يقيمون فيها، فكيف يخرجون، كاد كلامه يصل حد الاستجداء والمهانة، وتعب الفريقان من الأخذ والرد وتابع موشى ديان يرسم لهم خطة الانسحاب على مراحل، وتخيير المزارعين بالانضمام لهم أو لهم.

وفجأة. خرج موشى ديان من الخيمة التي تجرى فيها المفاوضات، على الحدود في منطقة طولكرم قلقيلة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها، كان ما زال نحيلا وعصبة عينه السوداء تغطى نصف خده البارز، وفجأة خرجت بدورى خلفه، وكان يدير ظهره إلى الخيمة وقد وقف وحيدا ينظر إلى الساحل، وتقدمت نحوه وأخبرته أننى أريد أن أتحدث معه، فقال تفضل قلت لقد استمعت إلى المهزلة في الداخل. وأنصح بألا تتم مثل هذه الإجراءات. إنها خطيرة. وتزيد أضعاف أضعاف على ما هو في قرار التقسيم. وستزيد الحقد ضدكم. وستشعل النار من جديد. هذا ما تبقى لنا من أرض خصبة، لا داعى لكل هذا التشدد.

"اليوم فقط"، أعرف أننى كنت طفلا مراهقا، ومع ذلك فقد أحسست أنه من واجبى أن أفعل شيئا، من أجل إنقاذ هذه الأرض الخصبة الجميلة.

نظر إلى موشى ديان من فوق وقال هذه الحرب وسوف تنسون، نحن نعرفكم "وانتهى الأمر بتسليم المثلث لإسرائيل، وعاد كمال ناصر إلى رام الله وفى اليوم التالى صدرت الجيل الجديد وقد تصدر صفحتها الأولى مقال بعنوان "كيف سلمنا المثلث" افتتح ببيت شعر:

"... ومن دخل البلاد بغير حرب... يهون عليه تسليم البلاد".

وبعد ساعات قليلة زج بكمال ناصر وكل محررى وعمال الطباعة ومن يمت للجيل الجديد بصلة في المعتقل.

خلال هذه الأيام التي أعقبت النكبة، واستغرقتها مباحثات الهدنة، تلاشى إيمان كمال ناصر بالأنظمة العربية. وبالجامعة العربية، وتحطمت آماله التي لم تكن في موضعها بهذه الأنظمة، وبفاعليتها، وبمدى ما يمكن أن تقدمه من عون ومساعدة.

وبدأ يفكر جديا في الانضمام إلى حزب البعث كتنظيم جماهيرى يرفع رايات الوحدة. كإطار سياسى يمارس نشاطه من خلاله.

ويشارك كمال ناصر بقلمه في جريدة البعث، ثم يلتحق بحزب البعث في أوائل ١٩٥٦م.

الأردن على الصليب:

نجح المناضل الفلسطيني محمد عشو في إنهاء المباحثات الدائرة بين الملك عبد الله وإسرائيل، باغتياله للملك في ساحة المسجد الأقصى – يوليو ١٩٥١، ونصب طلال ملكا على الأردن، وكان معروفا بعدائه للإنجليز وكراهيته للجنرال جلوب قائد الجيش الأردني، وبدأ يناهض الاستعمار البريطاني، ولكن لحساب الاستعمار الأمريكي.. وفتح طلال أبواب الأردن على مصراعيها أمام الاحتكارات الأمريكية المتخفية وراء مشاريع النقطة الرابعة للمساعدات الاقتصادية والفنية، إلا أن هذا الغرام الجديد بين طلال والإمبريالية الأمريكية الشابة أثار ثائرة الأسرة الهاشمية المتدلهة في حب الإمبريالية البريطانية، ودفعها الإخلاص لبريطانيا وهو إخلاص تاريخي عريق، للإطاحة بطلال وتنصيب حسين بن طلال ملكا (١٩٥٣). وبدأت بريطانيا تسعى لربط الأردن بحلف بغداد، بتكبيل القوى الوطنية، وفي منتصف عام ١٩٥٤قامت حكومة توفيق أبو الهدى بحل البرلمان، وتعطيل الصحف، وإجراء حركة اعتقالات واسعة، شملت الكثيرين من أعضاء الأحزاب الوطنية، والتنظيمات الشعبية تمهيدا لإجراء انتخابات جديدة.

وفي هذه الآونة كان كمال ناصر قد غادر الأردن إلى الكويت مهزوما جريحا، ولم تطل غيبته هناك، إذ لم يلبث أن عاد ليشارك في الموجة الثورية التي بدأت تجتاح البلاد، خاصة وأن أبعاد مؤامرة جر الأردن إلى حلف بغداد لم تعد خافية، بحضور جلال بايار رئيس جمهورية

تركيا، ورسول الحلف لحسين. فقوبل بالاضراب العام والمظاهرات ثم انفجرت الحركة الوطنية في صورة ثورة عامة في كل مدن الضفتين الشرقية والغربية وتدفقت الجماهير الغاضبة من الفلاحين والعمال والنساء والطلاب و... و...، تواجه الفليق العربى للبادية بقيادة جلوب باشا. وتتلقى الرصاص بصدورها. وكانت حقيقة كما شاهدها كمال ناصر أمة عظيمة لن تزول.

أمة فيها رجاء لن تزول....
هكذا صلى الرفاق .....
يوم ثاروا واستفاقوا .....
يحملون النعش نعش الثائرة ...
والدم الحر مراق ....
والجراحات انطلاق ....
والأمانى مثخنات حائرة ....
تزرع الوهم بصمت وذهول .....
أرق الحزن عليه والفراق ....
فانحنت ثكلى على النعش تقول ....
أمة فيها رجاء لن تزول ....

وما أسرع ما حنى رأسه للريح لتمر، الملك حسين، فتراجع عن فكرة الانضمام إلى الحلف وأقال الوزارة، وطرد جلوب باشا وحل برلمان ١٩٥٤ المزيف، داعيا إلى إجراء انتخابات جديدة عامة في أكتوبر ١٩٥٦. وفى هذه الانتخابات رشح كمال ناصر نفسه عن

حزب البعث في مدينة رام الله. وأصبح نائبا في البرلمان الوطنى الذى تشكل بأغلبية من الحزب الوطنى، فتم تشكيل الوزارة برئاسة سليمان النابلسى، والتي كان لها كثير من الأعمال الإيجابية. كطرد الضباط الإنجليز من الجيش، إلغاء المعاهدة البريطانية واستبدالها بالمعونة العربية، توقيع التحالف العسكرى الثنائى مع مصر، إطلاق الحريات العامة إلغاء القوانين الرجعية والمقيدة للحريات، والشروع في تطهير الأجهزة الحكومية من أعوان الاستعمار والرجعية واستبدالهم بعناصر وطنية ويسارية. تحقيق إشراف الحكومة على مشروعات النقطة الرابعة وإلحاق أموالها بميزانية الدولة.

وأثارت إنجازات وزارة النابلسى ثائرة الاستعمار، وبدأت الولايات المتحدة تعد للتدخل في الأردن، وفرض مشروع إيزنهاور عن طريق الاستعانة بقوى الثورة المضادة في الداخل كعادتها، وبادر الملك حسين تنفيذا لذلك بإقالة الوزارة في العاشر من أبريل ١٩٥٧ متذرعا بوجود وزيرين أحدهما بعثى والآخر ماركسى، وأصدر بيانا منددا بالنشاط الشيوعى مطالبا بالضرب بيد من حديد على كل من يدين بهذه المبادئ، تحركت على أثره كل عناصر الثورة المضادة، ونجح الاستعمار في الإطاحة بالحكم الوطنى، والعودة بالبلاد مرة أخرى إلى أحضان الرجعية والاستعمار، وأعلنت الأحكام العرفية وتعطل البرلمان وحلت الأحزاب الوطنية، ونقابات العمال واتحاد الطلبة، وفصل مئات الموظفين، وألقى القبض على عشرات الضباط الأحرار، وزج بالآلاف من المواطنين في السجون والمعتقلات، وسيق عشرات إلى ساحات الإعدام في الميادين

العامة. وقامت قوات البدو بحصد أرواح المواطنين المتظاهرين حصدا في الشوارع برصاص مدافعها. وهبت عصابات الإخوان المسلمين وحزب التحرير الإسلامي والقوميين السوريين الفاشيست تغتال العناصر اليسارية والتقدمية.

وتصدر اسم كمال ناصر قوائم المطلوب إلقاء القبض عليهم. وأصبح كمال هاربا، وظل مختبئا في بيرزيت مدة تجاوز العام. والبوليس دائم التأهب لإلقاء القبض عليه. وعمليات البحث والمطاردة لا تتوقف.

وإذا كان كمال ناصر قد استطاع أن ينجو بجلده من حملة الإرهاب بفضل المساعدات الجديرة بالاحترام والتي أغدقها عليه أبناء قريته، فإن هذه الأشهر في مجملها كانت سلسلة من التجارب النفسية القاسية، وما أشد وقع هذه التجارب عليه وهو الرجل الذى يتعلق التعلق كله بتصورات أسطورية عن البطولة. والذى غالى دائما أيما مغالاة في تمسكه بالكبرياء الإنساني، لقد كانت أخلاق كمال ناصر ومفاهيمه وتصوراته هي السياط الوحيدة التي اكتوى بلسعها:

ويفتشون ويسألون ....
وأنا هنا في مكمنى في ملجئى ....
متكور في ذلة تحت السرير ....
وأحسهم قربى بحقد يصرخون ....
أين الزعيم المارد ....

أين العظيم الشارد ....
السيف يطلبه وتطلبه السجون ....
الأرض تلعنه.. وتلعنه السنون ....
وأنا هنا في مكمنى العتم الصغير ....
متكور في ذلة تحت السرير ....
أنفى الأبى على الرغام ....
ويكاد يفضحنى الرغام ....
قد هاله ذلى ومأساة الكرام ....
وأحس أنفاس الكلاب تشمنى ....
وتصيح في مرح جبان ....
هرب الجبان ....
سخرت لتحمينى وتمنحنى الأمان ....
وتمد لى من خلف بسمتها اللسان ....
وتصيح في مرح جبان ....
أخرج لهم ....
أخرج فقد خجل الخجل ....
والكبر أطرق وانفعل ....
وتهدلت منك العيون ....
لكنهم لا يبصرون فيسخرون ويسرعون ....
....
ولجمت في صدرى الإباء

وذبحت فيه الكبرياء .....
وقبعت أجتر الشقاء لعلهم ....
لا يعثرون . فيسأمون ويذهبون ....
ويفتشون. ويسألون فيذهبون ....
وتعود أحلامى إلى ....
وتثور آلامى على ....
وتعز أمالى لدى فلا أطيق ....
وتصيح في الكبرياء ....
أن عز في الوطن الفداء فأستفيق ....
وعلى خطاهم من بعيد ....
تنساب أغنية العبيد ....
في مسمعى، في أضلعى ....
وأنا هنا في مكمنى العتم الصغير ....
متكور في ذلك تحت السرير ....
فإذا بصوت للضمير ....
صوت أذل من المصير ....
يغتالنى، ويصيح بى. نذل حقير... (حقير)

ومن بيرزيت، استطاع كمال ناصر أن يتسلل هاربا إلى نابلس ليختفى أربعة أشهر قبل أن يستطيع عبور الحدود إلى سوريا، وليبدأ حياة المنفى بين سوريا ومصر ولبنان حتى صدور عفو عام في الأردن ١٩٦٥.

النكسة:

لم تكن الإقامة في سوريا بالإقامة الهينة، بل إن كمال ناصر عاش في سوريا تمزقا لم يعشه من قبل. ومن تمزق إلى تمزق، خاصة حين حدث الانشقاق في حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٥٩، ومرة أخرى عندما بدأت الصراعات بين عبد الناصر والبعث.

فكمال عضو بالبعث لإيمانه بالنضال الجماهيرى المنظم، ومع عبد الناصر الذى رأى فيه الفارس والزعيم القادر على تحقيق ما لا يستطيع غيره أن يحققه. وكمال في النهاية مع الوحدة وضد الانفصال... وحين استولى الحزب على السلطة سنة ١٩٦٣ في العراق وفي سوريا انتعشت معنويات كمال ناصر، ولكن على غير ما يشتهى سارت الأمور ليجد نفسه ١٩٦٦ خارج الحزب عائدًا إلى بيروت، حاملا هوية نضال فلسطينية. لاحقا بالكفاح الفلسطيني الذى انطلق بقيادة البرجوازية الصغيرة في طريق التعبير عن الشخصية الفلسطينية، والذى بدأ مسيره منذ عام ١٩٦٤.

بدأ الفلسطينيون يتحسسون بوادر الخطر المقبل مع نهاية عام ١٩٦٦، من الهجمات الإسرائيلية على سوريا والأردن، وفي نوفمبر، وقعت مصر وسوريا اتفاقية الدفاع المشترك، وفي مدن وقرى الضفة الغربية تشكلت لجان المقاومة، لتنظيم الجماهير وتدريبها على الدفاع، وتشكلت الوفود لمقابلة الملك حسين، تطالب بالسلاح لتدافع عن نفسها، وبرفضه، تصاعد التوتر بين الفلسطينيين وبين الملك الهاشمى،

كانت المؤامرة الجديدة تحاك في صمت، وكما يقول كمال ناصر عقب النكسة في مذكراته:

الأيام أثبتت في الماضي وستثبت في المستقبل الارتباط العضوي بين بعض هؤلاء المسئولين وبين إسرائيل، لم تكن الضفة الغربية مفرغة من السلاح بالمصادفة، ولم تمنع من القتال بالمصادفة ولم تهزم الأمة العربية كلها بالمصادفة.

أيقن كمال ناصر أنه بمجرد نشوب الحرب فإنها ستنتهي باحتلال الضفة الغربية، ولم يضع وقتا، وزملاؤه، فنظموا مجموعة رام الله وصح ما توقعه. انتهت الحرب باحتلال الضفة الغربية، مليون عربي تحت الاحتلال الإسرائيلي آلاف وآلاف من اللاجئين، وآلاف مؤلفة من الخيام.

نشطت مجموعة رام الله وهبت إلى العمل، وانتخبت كمال ناصر وإبراهيم البكر للتنسيق بين المجموعات المختلفة المشكلة في المدن والقرى. لتنظيم ما يسمى بحركة الفلسطينيين الوطنية كحركة تحشد في صفوفها الاتجاهات كافة من اليمين واليسار ضد الاحتلال.

وفي الوقت الذي بذل كمال ناصر جهده لتنظيم الكفاح السلمي في الضفة الغربية إيمانا بفاعليته وجدواه في تلك المرحلة، فوجئ بالتنظيم المسلح داخل الوطن المحتل، وكما يقول في مذكراته "على صدوركم باقون": وجدت نفسي أمام الأمر الواقع أتحدث وأناقش بعض وجهات النظر حول الموضوع (الكفاح المسلح). فقد كنت أميل إلى التريث

والاستعداد وخاصة فقد كنت ألمس وأحاول تفهم نفسية الشعب بعد الاحتلال مباشرة وردود الفعل المختلفة للعنف الثورى الذى كان العدو يقابله بالسحق والذبح وكنت أفضل أن تنظم البلاد للمقاومة السلبية كما نصحنا بعض التقدميين من أبناء الأرض المحتلة ثم نعود إلى تصعيد الكفاح بالسلاح.

لم تستمر طويلا أيام كمال ناصر في الضفة الغربية المحتلة، فما أسرع ما تنبهت إلى ما يقوم به السلطات الإسرائيلية، وفى نهاية شهر ديسمبر ١٩٦٧ رافقت الحراسة الإسرائيلية كمال ناصر وإبراهيم البكر إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن، حيث قام وفد أردنى بتسلمها كانت السنون قد صقلته تماما بالخبرة، وحنكته بالدراية والحكمة، وقدمت أحلامه في الحكومات العربية المتخاذلة ضعفا أو العميلة، والأحزاب المتهاوية، ومنذ هذا التاريخ وجد أحلامه في أحضان الثورة الفلسطينية، انضم عضوا في فبراير ١٩٦٩ للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتسلم مسئولية الإعلام بها، وسخر كمال ناصر – ضمير الثورة الفلسطينية – جهوده لحشد الطاقات وتوحيد المنظمات المختلفة والتي لم ينضو تحت لواء أي منها.

وفي دورته الحادية عشرة في ١٩٧٣/١/١٢ انتخب المجلس الوطنى الفلسطيني القيادة الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي تشكلت من ياسر عرفات رئيسا، وعضوية كل من محمد يوسف النجار (أبو يوسف) من قادة فتح – مسئولا عن الشئون السياسية، وزهير محسن عن منظمة

الصاعقة مسئولا عن الشئون العسكرية، وكمال ناصر متحدثا رسميا باسم المقاومة، والدكتور يوسف صايغ رئيسا لمجلس إدارة الصندوق القومي، والدكتور عبد الوهاب الكيالي عن جبهة التحرير العربية، وأحمد اليماني (أبو ماهر) عن الجبهة الشعبية، وأديب عبد ربه عن الجبهة الديمقراطية، وحمدي أبو ستة، وزهدي النشاشيبي عن المستقلين.

زمن الشهادة:

أعقاب النكسة التي لم تدمر رغم شراستها إرادة الثورة العربية..، ومنذ أواخر العام ١٩٧٠، ضاعفت الولايات المتحدة الأمريكية هجومها على حركة التحرر العربية، في اتجاهين، ضد مصر بهدف عزلها عن أمتها العربية، وضد الثورة الفلسطينية بهدف تصفية النضال الفلسطيني المسلح. وأصبح واضحا أن هناك مخططا أمريكيا جديدا ضد حركة التحرر العربي يتوجه بدبلوماسية هادئة في عدة مسارات:

- تمزيق وحدة الصف الوطني العربي، وإثارة الانقسامات بين الدول الوطنية والتقدمية من ناحية وبين الأحزاب والفئات الوطنية والتقدمية من ناحية أخرى.
- عزل مصر عن حركة التحرر العربي.
- تصفية المقاومة الفلسطينية تصفية مادية وبدنية توطئة لتصفية قضية الشعب الفلسطيني إلى الأبد.
- عزل حركة التحرر العربي عن حلفائها الطبيعيين – البلدان الاشتراكية والاتحاد السوفيتي.

– أبعاد قضية الصراع العربي الإسرائيلي عن المجتمع الدولى. لتنفرد أمريكا بتقديم حل أمريكى مائة في المائة أي إسرائيلى في المضمون لهذا الصراع.

ولقد أكدت الصحافة العالمية – في ذلك الحين – على وجود اتفاق أمريكى مصري لحل القضية الفلسطينية.

ولقد ساهم التحرك الامبريالى الأمريكي في هذه المرحلة على تنشيط القوى القبلية وشبه الإقطاعية في الوطن العربى من جديد بعد أن عزلتها الثورة العربية، كما أدى إلى انتعاش قوى اليمين الاجتماعى وتوثبه وتحينه للفرص لاستعادة السيطرة على مقدرات الشعوب العربية وانتعاش آماله في تصفية اتجاهات الثورة الاجتماعية (الطليعة – يناير وفبراير ١٩٧٢) وفى إطار هذا المخطط الامبريالى، لعب النظام الملكى الأردني دوره المرسوم بإتقان، بداية من معركة الكرامة ١٩٦٨/٢/٢، إلى مذابح سبتمبر ١٩٧٠، حيث استمرت هجمة أيلول الأسود زهاء العشرة أيام من ١٩٧٠/٩/١٧ إلى ١٩٧٠/٩/٢٧ قبل أن يتوقف القتال ويوقع الملوك والرؤساء العرب اتفاقية القاهرة، على جثث عشرين ألف شهيد من رجال المقاومة، وفي الوقت الذى استشهد فيه الرئيس عبد الناصر، كانت اللجنة العربية العليا برئاسة الباهى الأدغم في عمان تجرى مراسم التوقيع على الاتفاقية وملحقاتها بين الملك حسين وياسر عرفات، وفي ظل هذه اللجنة دارت مجازر جرش والهملان والبقعة والمفرق وأربد. واستمر النظام الأردني مخلصا في تنفيذ المخطط الإمبريالى بشجاعة حتى مذابح جرش وعجلون ١٩٧١.

كانت معركة الكرامة المفتتح الحزين لزمن الشهادة، زمن المذابح الكبرى، زمن انحسار الثورة وانتعاش الطغيان، ولقد بدأ كمال ناصر مع غيره من الثوار رحلته البطولية إلى الشهادة.

تولى كمال ناصر إلى جانب أعبائه العديدة رئاسة تحرير فلسطين الثورة، التي اعتبرها التعبير عن فكر الثورة ووحدة مواقفها ومرتكزاتها التوجيهية في مرحلة تحرر الوطن.. والتي من شأنها أن تنفى حالة الضياع والبعثرة والتشرذم التي مرت بها المسيرة.. دافع كمال ناصر من خلال فلسطين الثورة عن المقاومة. مواجها بشراسة مخطط التصفية الذى يستهدفها كطليعة للثورة العربية:

إن القضية (الفلسطينية) في خطر، وإن الأمة العربية في خطر، وإن الهجمة الإمبريالية الصهيونية في تعاظم، وإنها تجهد أكثر من أي وقت مضى لتمرير الحلول الأمريكية الإسرائيلية الاستسلامية في المنطقة، معتمدة على سلسلة الترتيبات التي أجرتها هنا وهناك ومستفيدة من الجو العربي الرسمي المتردى المستسلم، والذى فقد في بعض محاوره القدرة على التمييز بين الوطنية والخيانة[1].

إن مذابح الثورة الفلسطينية هو ثمن كل الحلول التصفوية والاستسلامية. وثمن السلم الإسرائيلي الأمريكي الذى يعملون على تطويع المنطقة لقبوله[2].

---

(1) فلسطين الثورة ١٩٧٣/٢/٢.

(2) فلسطين الثورة ١٩٧٣/١/١٧.

وإن الكمائن التي نصبت للثورة في مختلف الساحات الدولية والعربية في الماضي القريب، لا تزال منصوبة لها اليوم، وبأسلوب أدق وأخطر يستهدف الثورة في الجذور وفي الرأس.

والصهيونية وقد أوشكت أن تصبح حرة الإرادة تمارس طبيعتها ممارسة حقيقية لا تقبل مصيرا لشعب فلسطين إلا مصير "الهنود الحمر" الذين أصبحوا في الولايات المتحدة مجتمعا صغيرا شبه منقرض.

أما الإمبريالية التي تربطها علاقة عضوية بالحركة الصهيونية، فترفض وعلى المستويات كافة أن تعترف بوجود شعب فلسطين، وأقصى تعريف تملكه الإمبريالية لحقوق شعب فلسطين هو حقه في التعويض، بمعنى أن يبيع كامل حقوقه بالدولارات الأمريكية إلى الصهيونية والإمبريالية. وهي تقبل حتى بهذا التعريف الأقصى من ضمن المعادلة والموازين الدولية وضغوط المعسكر الاشتراكي.

أما حقوق شعب فلسطين لدى الرجعية العربية وبعض المبرقعين بالوجوه الوطنية فهو أيضا حقه في التعويض والتوطين. بشرط أن ينفتح عليها خزان الدولارات الأمريكية باسم التنمية والانعاش. واستثمار رؤوس الأموال. وأقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الحقوق في عرفها هو حق شعب فلسطين في دولة صغيرة على رقعة من فلسطين يتجمع فيها الشعب كأنه في معسكر اعتقال أو إبادة. وهذه القوى الرجعية بحكم طبيعتها وارتباطها العضوى بالإمبريالية مضطرة بالقبول بالدويلة الفلسطينية الدائرة في فلك الصهيونية[٣].

---

(٣) فلسطين الثورة ١٩٧٢/٨/٢٠.

ولكن "ليس خيار العرب هو الرضوخ للمخطط الصهيوني الإمبريالى، وإنما خيارهم في إيجاد الوسيلة الفضلى لمواجهة الهجمة المعادية"[٤].

إن الارتباط بين الكيان الصهيوني والإمبريالية الأمريكية هو ارتباط عضوى وهذا يعنى أن الإمبريالية الأمريكية هي بالضرورة عدو مفروض علينا لا يمكن تجاهله ولابد من موازنته بالقوة الذاتية والقوة الصديقة معا.

فالقوة الذاتية هي الأساس والمنطلق لأى إرادة فعل.

وعندما ندعو إلى الاعتماد على القوة الذاتية للقومية العربية نتساءل ما هي عناصر هذه القوة.؟ وهل الرجعية العربية بين هذه العناصر.

إن التحليل العلمى والموضوعى لطبيعة الرجعية قد توصل إلى حقيقة الارتباط العضوى بين الرجعية والإمبريالية، ومن هنا فإنه من العبث الاتكال على الرجعية العربية في القيام بعملية الضغط على المصالح الإمبريالية الأمريكية في المنطقة أو ضربها، لذلك فإن هذه المهمة هي مسئولية حركة التحرر الوطني العربية. ومنها البرجوازية الوطنية.

وإن الطاقة العربية الوطنية بأسرها لو حشدت ونظمت ونسقت فيما بينها قادرة على الإعداد لمعركة طويلة يكون النصر فيها للأمة العربية.

---

(٤) فلسطين الثورة ١٩٨٢/٨/١٦.

وعلينا بالضرورة[٥] أن نميز في المنطلق والأسلوب بين معسكر الأصدقاء ومعسكر الأعداء. لقد اتضحت العلاقة العضوية بين الدولة الصهيونية وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا كنا لا نستطيع التوصل إلى موازنة هذه العلاقة العضوية المعادية بأخرى بيننا وبين الاتحاد السوفيتي. فإن خيارنا ليس تحويل العلاقة غير العضوية بيننا وبين الاتحاد السوفيتي إلى علاقة سلبية أو علاقة تناقض ثانوي.

وما دامت موازين القوى على حالها في معسكر العدو وباستمرار العلاقة العضوية بين الصهيونية والإمبريالية الأمريكية فليس هناك سبب أو مبرر لتغيير موازين القوى داخل معسكرنا، خصوصا وأن أي تغيير في معسكرنا لا يمكن أن يكون أجدى مما هو كائن وقد يكون أسوأ بكثير.. وأنها لمحاولة خطرة أن نحاول نقل التناقض بيننا وبين الصهيونية العالمية والإمبريالية الأمريكية إلى تناقض بيننا وبين الاتحاد السوفيتي.

ورغم قناعتنا الكاملة بحتمية الصداقة الاستراتيجية بيننا وبين الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الاشتراكي الأخرى، فإن فراغ المنطقة لا يمكن أن تملأه سوى القومية العربية وأن يملأه أبناؤها المناضلون المخلصون في الحركة الوطنية والتقدمية العربية.

لقد تطورت شخصية كمال ناصر في قلب الأحداث ومعها وصعد به الكفاح إلى مصاف القادة المسئولين عن توجيه المقاومة، ولم يعد بإمكان الصهيونية أن تكتفي بإبعاده في حراسة جنودها كما حدث من

---

(٥) فلسطين الثورة ١٩٨٢/٨/١٦.

قبل في نهايات ١٩٦٧، لقد أصبح صوتا واسع الانتشار لكيان المقاومة الفلسطينية، وصوتا بالغ التأثير، ناضج الرؤية، ومن ثم يكمن خطره في تهديده لمصالح إسرائيل والإمبريالية الأمريكية والرجعية العربية، وفى فضحه لمخطط التصفية والاستسلام، والضالعين فيه.

وقبل العاشر من أبريل ١٩٧٣، كان اسمه والأماكن التي يرتادها بين أسماء كثيرة وأماكن أخرى قد حددت باللون الأزرق على خرائط وكروكيات الصهاينة المستوردة من البنتاجون، وكان القتلة يجوسون في بيروت الوادعة يتناولون طعامهم في منتدياتها ويقيمون في فنادقها يدرسون على الطبيعة موقع العمليات، بمساعدة عناصر داخلية، إلى أن انتهوا من إعداد كل شيء.

وعندما ذهب كمال ناصر إلى مكتبه ذلك اليوم، كان كل ما حوله يتهامس بالمصير الفاجع، والموت الذى انتظره طويلا يحوم حوله، ولعله وهو الشاعر المرهف الشعور ذو الضمير النقى، قد استمع إلى بحر بيروت يحذره كما حذره أصدقاؤه والمقربون إليه من النهاية المتوقعة، والتقطت حواسه رائحة المنية الغامضة وهى تتسرب ممتزجة بهواء المدينة مشبعة برائحة اليود والطحالب المائية، فابتسم ابتسامته الطيبة. محتفظا بمرحه الدائم، متذكرا كلماته الأخيرة التي خطها لفلسطين الثورة، أن فلسطين أكبر من القيادات والأشخاص ولابد أن يذوب الجزء في الكل، وأن يذوب الكل في الثورة، حتى لا تسقط الثورة، وعكف على عمله، وعندما داهموه عرفت سبابته ربما للمرة الأولى والأخيرة كثافة الضغط على زناد مسدسه الصغير، وهو الرجل الذى ناضل بالكلمة

طيلة عمره، وأطلق عدة رصاصات صائبة على مهاجميه، قبل أن تتراشقه النيران الآثمة وتجندله فيسقط مضرجا بدمائه.

والذى لم يعرفه كمال ناصر، وهو يغمض عينيه على ثقوب الطلقات التي اخترقت جسده، أنه لم يكن الوحيد – هذه الليلة – الذى أطبق عليه الظلام فجأة بانقطاع تيار الحياة وأن هناك آخرين امتدت إليهم نفس اليد، نفس اليوم، ونفس اللحظة، محمد يوسف النجار – تم الإجهاز عليه بعد أن سقط جسد زوجته الذى وثب ليحميه ويحول بين الرصاص وصدره، بينما أطفالهما مشدوهو الحدقات يستدير بأعينهم الألم، ويقتلهم الخوف، كمال عدوان، أفاق من حلم الحياة بين أحضان زوجه على منحدر الموت المغتال.

"ثلاثة أودية من عسل قان.

لثلاثة أزمان.

يصيرون وضوء الأرض... وضوء الشمس.

يصيرون الأب والابن والروح القدس.

ثلاثة أثلاث في جمع واحد"[٦].

أما القتلة، فلقد مكثوا في دار سفارة الولايات المتحدة الأمريكية بعين المريسة يوما أو بعض يوم إلى أن تمكنت طائرات الأسطول السادس العمودية من نقلهم إلى عرض البحر بأمان.

---

(٦) يوسف الخطيب – سرينادا القمر الأسمر – إلى ثلاثة الخالصة، ثلاثة توشيحا، ثلاثة نهاريا، ثلاثة أم العقارب، إلى جميع ثلاثات الحب الفلسطيني الكبيرة، منذ ما قبل ثلاثة الثلاثاء الحمراء عام ١٩٣١ إلى ما بعد ثلاثة ليل الفردان ١٩٧٣.

الحس الطبقى

آفاق الفن وحدود التاريخ

من غير المنتظر، أن يلتفت الشعر المقاوم – بداية – إلى المشكلة الاجتماعية، إلا من خلال منظور المجابهة والكفاح الوطني، وهو منظور محدود على الرغم من إنسانيته، ومن كونه مسددا نحو الاتجاه الصحيح، بواقع ظروف القضية الوطنية في تعلقها المرير وحركتها الدائبة النضال ضد الاحتلال الأجنبي.

ولقد تفاعلت التجربة الشعرية لكمال ناصر، تفاعلا كاملا، بعاطفة التحدى الوطنى واستغرق موضوعها الحنين لاستعادة الأرض العربية من مغتصبيها، ثائرة على القهر الإمبريالى، وترامت الرقعة الوجدانية لعالمه الأدبى داخل هذه الحدود.

إلا أن انصراف التجربة الوجدانية لاحتضان مشكلة ذات وضع معين، وقدسية خاصة، تفرض مفاهيم الوحدة والائتلاف الوطنى على معالم التجربة الفنية، ومصطلحاتها، ودلالاتها وتصوراتها لا ينبغي أن يعفيها من تبين حقيقة القوى الاجتماعية ومواقعها الطبقية داخل إطار حركة التحرر، التي تمد ظلالها على الجميع، وتوظف الكل لتحقيق

الهدف الوطني، والاستدلال على الحس الطبقي للشاعر لن يتم في هذه الحالة بعيدا عن الانفعال والتفاعل بالعاطفة الوطنية، بل بالتعرف على سمات وملامح المقاتل، إلى من ينتمي؟، وما أساليبه؟

***

يتنامى العالم الوجداني على ضفاف نهر التحريض والاستثارة، صاعدا من قمة الفن إلى قمة التأثير في حركة الواقع، ويضرم الاحتكاك الفعلي والمباشر بالتاريخ نيران الواقعية بعناصر التجربة الأدبية، فتنزع الحقيقة الفنية مسوح الغموض والتعميم وتتساوق مع الحقيقة الخارجية، مأخوذة برغبة ثورية صادقة في إحداث انقلاب على مستوى الحدث يعادل الإرادة، فلم يكن كمال ناصر مجرد شاعر مقاومة، وإنما شاعر ومقاوم في الآن نفسه، ألقاه التاريخ بقوة في أتون جحيم منطقة منكوبة بأشرس الهجمات البربرية، فارضا عليه أن يسهم بجهده وحياته لتحويل هذا الجحيم إلى جنة للمتطلبات الإنسانية المألوفة، في الحرية والكرامة، فينطلق العالم الوجداني متجاوزا التأمل المستكين للحكمة وفلسفة الوجود إلى لحظة مشبوبة التغني للخطة وللمسار والطرق.

تبرز التجربة الشعرية الدور الرئيسي الذي تلعبه الشعوب في معارك التحرر الوطني، وتتطلع بعقلانية إلى تنظيم الجماهير، وحشد طاقتها وتسخير كافة إمكانياتها "فيا وطني أن تبغ عزا ورفعة.. تموج بأحلام تظللنا دهرا، فنظم صفوف الشعب نظم سبيله.. على هدف واع وحرية حمرا، ندق بها باب الحياة عقيدة.. ونلهب في أرجائها العقل والفكرا"، وبهذه

الروح العملية، تتقدم الرؤية الوجدانية خطوة للأمام عن تجربة الشاعر العربي الحديث، والتي من أشهر نماذجها قصيدة أبي القاسم الشابي "إذا الشعب يوما أراد الحياة... فلابد أن يستجيب القدر".

وإذا كان الشابي قد أكد على إرادة الشعب، وأضاف كمال ناصر ضرورة تنظيمها، فإن كلا منهما لم يتوقف ليمعن النظر ويدقق الرؤية في الوزن الثورى المتباين للقوى الوطنية المختلفة المطالبة بالتنظيم والكفاح. فمصطلح الشعب يتألق بدلالة الائتلاف وبمفهوم الوطن أو الأمة بأسرها.. وبالتالي يبدأ المنطلق الشعرى زحفه التحريضى من الجرح الدامى مستصرخا همة الشباب، أقدر الفئات وأكثرها جرأة ومرونة وتحملا، وأعظمها بذلا وتضحية وثورية.

يا شباب البلاد ما أضيع العمر
إذا الشعب لم يثر لهوانه
إنما المجد وثبة ودماء
فاتركوها تسيل في ميدانه
هو ذا الساحل الجميل يناديكم
ويشكو الهوان في نسيانه
هو ذا الموج يلطم الصخر حزنا
فأصيخوا للموج في هيجانه
واسمعوه يقول أين رجالى
يالعار التاريخ في دورانه

يعكس التداعى بين مصطلحى الشعب والشباب حقيقة القناعات الفكرية التي تأسس حولها العالم الوجدانى، والتي لم تقم الجسور بين الأوضاع المادية وحركة النضال، وهو ارتباط كان جديرا بمسخ هذا التداعى واستناد البطولة الوطنية على أكتاف الفئات الاجتماعية الثورية، وعلى بلورة معالم التحريض بقيم مختلفة عن قيم المجد والهوان والحزن والعار... وإن كانت التجربة الشعرية قد تبينت البؤس الاجتماعى داخل تجربة التحرير، ومس التصدي الوطنى الوضع المتردى بصورة واضحة ودقيقة:

بروحى بلاد شـــرد الغـــرب شعبها
فراحت تقاسى من دسائسه الجورا
بلادى وللآمـــال فيهـــا بقية ....
إذا مسها الإيمان يضـــرمها جمـــرا
هويت فذل الشعـــب يأســـا ولوعة
وأحنى لدى إذلاله الرأس والظهرا
وقيـــل إذا مـــر الأنـــام بـــدربنا
هنا لاجيء يحيا على دربـــه فقـــرا
جبان مريـــض جاهـــل لا تثيـــره
مآسيه بل تملى على روحه الصـــبرا
(العودة الكبرى)

ومع هذا، فبؤس المخيم المتعلق بالتداعي بالشعب، بؤس قاصر أن يتحول إلى قوة وثورة، وظل بائسو الخيام الجياع باعثا لحركة النضال، دون أن ينخرطوا في صفوف المناضلين الأبطال، وظلت الخيمة موضوعا للوعي دون أن تحتل مكانة (الواعي)، وتقيم التجربة الشعرية علاقة وصاية بين (نا) فاعلين قوية مدركة رشيدة جديرة بالحقوق والواجبات متسيدة وبين بؤس اللاجئين، ويتمادى تصميم الخيال الشعري على حرمان البؤساء من نعمة الإدراك، ومن الخروج على مصير الشيء للارتقاء لمصاف الإرادة الإنسانية الفاعلة والمؤثرة.. والتي خصت بها (نا) الشاعر ونخبته المتعالية.

خيامـــا تعلمنـــا أن نظـــل
قلوبـــا تجمـــد فيهـــا الحجـــر
خيامـــا تـــذكرنا بالضـــحايا
تتـــأثر في الســـهل والمنحـــدر
خيامـــا تشـــير لمعـــنى الحيـــاة
العميـــق يهـــذى الحفـــر
فيرعـــد في صـــدرنا الانتقـــام
وتـــرقص فينـــا طيـــوف الصـــور

(انتفاضة الخيام)

ويسعى التصوير الأدبي إلى إقامة الجسور أمام (نا) النخبة للانطلاق بالمقاومة للعودة إلى الديار السلبية، دون أن يصل إلى التشكيك في

الوزن الوطني والثوري المغالى فيه لهؤلاء، ويرهن كر الجحافل بلحظة إدراك الوضع الاجتماعي المتردى للاجئين ويعمل الخيال الشعرى على اختلاق الموقف الكفيل بتصاعد البؤس لمستوى فهم السادة كشرط لحدوث الفعل المقاوم، وتحقيقه للأمل الوطني.

رمضان يا شهر الصيام جزعت لفرقتك الخيام
لم لا تعود إلى الديار
فيحس رهط المترفين
السادرين الغافلين
بالجوع، لو بعض النهار
فلربما يتألمون ويدركون
معنى الطعام
ولعلهم يتساءلون .....
ويشعرون ويفهمون
أن البطولة أن نكافح... للرجوع وللحقيقة في الخيام
(صرخة الخيام)

والرقة التي تعامل بها التجربة الشعرية رهط المترفين الغافلين غير المتألمين أو المدركين تنقلب إلى نوع من الشراسة النابية، وتتناسى التجربة دماثتها، حين تتعامل مع رهط المظلومين، فمن الطبيعي حين تقطع التجربة الوجدانية الصلة بين البؤساء والتاريخ بإنكار إمكانية تصدرهم لقيادة الكفاح، والانخراط الذاتي في المقاومة، أن تنعتهم

بالصفات اللاإنسانية، وما دامت القناعة الفكرية الأساسية تميل إلى تبنى التصورات البرجوازية، حول دور الفرد في التاريخ وأحقية النخبة، فإن عليها أن تتحوط لعزل الجماهير عن العالم الإنسانى بنفى إنسانيتهم نفسها، وهى بلا شك ملزمة استكمالا لهذه التصورات إلى تقديم الجماهير بسمات غير آدمية كقطيع من الحيوانات، وتنتقى التجربة الشعرية مصطلحاتها من قبيلة الأفعال اللاإنسانية شاحنة الكلمات بإيحاءات وإيماءات حيوانية..

وإذا الشعب صامت يمضع العسف
ليمضـــى الموتـــور في أمعانـــه.
خائف واجف يلـــذ لـــه الظلـــم
ويمشـــى بـــه علـــى جثمانـــه.
وكـــأن الـــبلاد ملـــك ســـواه
لم يسل فوق أرضها مـــن جنانـــه.
رب شعب في غمرة الذل أضحـــى
ليس يدرى حماره مـــن حصـــانه.

(الزعامات والشعب والطحين)

وقد يكون من المقبول غصبا إلحاق الخوف بالشعب المقهور، حين تتأسس لوحة الفزع على جوانب اللوحة الشاملة للأوضاع العامة، التي تجعل من الرهبة أمرا مشروطا بهذه الأوضاع وليس بطبيعة الجماهير نفسها، إلا أن كثافة فعل (يلذ له) هنا تمد ظلالها السوداء وتغطى ألوانها

الداكنة أفق الرؤية الوجدانية بإبراز الخوف كصفة نفسية أصيلة تمس التركيب الخلقى للشعب المتمتع (بمضغ) العسف، وهكذا يطاح بقوة المظلومين وأحقيتهم في المضي قدما بلا وصاية من (نا) الصفوة المختارة.

وتفصح التجربة الشعرية عن هذه المعانى مباشرة، دون حاجة لاستخدام قاموس الأفعال اللابشرية في تجسيم حيوانية الجماهير، فتقدمها كخراف هزيلة مستسلمة لقسوة المصير، لا تحركها من مرقدها غير عصا الراعى القدير.

تجمـــل الشعب بالحرمان والتزمت
خرافه الهادئات الصمـــت والأدبا

نـــام القطيـــع على أحلامـــه ألمـــا
وراح يكبح في أضلاعه الصخبـــا

ضريبة الجوع هذه سوف يحملها
وأن تحمـــل من إذلالهـــا النصبـــا

بمنظورها الفردى، لم تهتد التجربة الشعرية، إلى الوزن الثورى والوطنى للقوى الاجتماعية المطحونة، كما لم تتوصل بداية إلى تصور صحيح لتأثير الأوضاع الطبقية والمصالح المتباينة على المواقف الوطنية للفئات المختلفة، وانزلقت بتصوراتها لتغليب التفسير الأخلاقى للظواهر، وفى حين تترجم التجربة الوجدانية الركود الثورى بعوامل

داخلية كيلذ له العسف، لا تنجح في حملتها الشعواء على الزعامات الخائنة، أو في تقدير دورها تقديرا سديدا، وظلت مشكلة القيادة من المشاكل الملحة على الوجدان الأدبي، وعلى ذهن كمال ناصر، دون حلول سليمة. لقد مست التجربة الشعرية بعاطفة محنقة موقف الزعامات، وجرفها الغضب في تياره لإدانتها، إلى الحد الذى أنكرت فيه انتماءها للشعب، إلا أنها لم تستطع أن تؤصل البواعث الحقيقية لعدم فاعلية القيادات في تحقيق الحلم الفلسطيني، وغابت الرؤية الوجدانية في ضباب التفسيرات والسخط الأخلاقي، تائهة في دغل الواقع الاجتماعى غير المتميز التكوين. فهى إن أعلنت سخطها على هذه الزعامات الجشعة النهمة إلى الكسب والربح، إلا أن منطلقها الصحيح ما أسرع ما يسلم عالم القصيدة للمثالب الأخلاقية، فتطفو التجربة على السطح دون أن تتصيد الحقيقة من الأغوار السحيقة.

مـــا أضـــاع الـــبلاد إلا طغـــاة
أصبحوا للغريـــب مـــن عبدانـــه
كلهم مجرم دخيل علـــى الشـــعب
يـــرى راقصـــا لـــدى أحزانـــه
صرعتهم سلافة الكسب والربـــح
فأضـــحوا للبغـــى مـــن ندمانـــه
وأباحوا هتك الحســـان فمرحـــى
لأبىّ يبـــيح هتـــك حســـانه

كان بـــالأمس قبلـــة للمخـــازى
تأنف الكـــأس أن تطـــوف بحانـــه
يـــتمنى عطـــف الكـــرام فلمـــا
بسم الدهـــر واعتـــلى في مكانـــه
لاح ســـم الأذى علـــى ناجذيـــه
وأطـــل الـــدهاء مـــن أجفانـــه
فمضى يرهـــق الضعـــاف ويملـــى
بطشـــه عنـــوة علـــى أقرانـــه
والزعامـــات قلـــوب خائفـــات
كلـــها للنفـــاق خيـــال رهانـــه
(الزعامات والشعب والطحين)

بمنظور فردى ومنطلق أخلاقى، لا يمكن للتجربة الشعرية أن تفصح عن تجربة واقعية ذات دلالة ثورية جلية. إنها مقيدة بتشوشها أكثر منها قادرة على تقديم رؤية واضحة عن الواقع، وعادة ما تتسرب الشحنة الوجدانية في هذه الحالة إلى مسارب هامشية غير ذات أهمية، إن لم تكن مجانية. مهما توفر للشاعر الصدق الفني القمين بترشيد التجربة واهتدائها للحقائق الجديرة بالتأمل، والتناول.

ولقد وقف كمال ناصر – كشاعر – بجوار الأمانة الفنية ونزاهة الشعور ملتزما بالصدق، غير أن النوايا الشريفة، ودقة الملاحظة الفنية لم تستطع أن تثرى التجربة الوجدانية وتخصبها بالتعدد، ولا أن تصل بها

لمصاف التنبؤ والتشوف العظيم. لافتقادها للحس الطبقي العميق، وظل العالم حوله مرتعا للشرور والدسائس والمظالم، مرفوضا بقبحه ودمامته، دون أن يتوافر للرفض القاعدة الشعورية السليمة اللازمة لإعادة ترتيب معالم الواقع، وبناء عالمه الفني المكين، والمستنير، ولا شك أن هذا قلل من القيمة الحقيقية لشاعريته، ليس فقط بمقارنته بشعراء المقاومة الفلسطينية في أجيالها الحديثة. وإنما بعقد هذه المقارنة بينه وبين الجيل السابق عليه من شعراء المقاومة وجيل شعراء ثورة ١٩٣٦، إبراهيم طوقان وعبد الرحيم محمود وأبي سلمى...

وإنصافا لكمال ناصر ولموضوعية البحث سنكتفي بمقارنته بإبراهيم طوقان المنحدر من صلب أسرة إقطاعية شهيرة من نابلس، كما أنه مثل كمال ناصر تلقى تعليمه بالجامعة الأمريكية ببيروت، ونال ذات القسط من التربية البرجوازية بها. كما أنه ودع الدنيا في فترة مبكرة (١٩٤١) قبل أن يبدأ كمال ناصر حياته العامة (١٩٤٥) وبالرغم من كل هذه العوامل التي تميل إلى تغليب كفة كمال ناصر في الموازنة بينهما، نجد أن التجربة الشعرية لإبراهيم طوقان تميزت إلى حد ما بحس طبقي قوى، مكنه من أن يمد عالمه الشعرى بواقعية إلى مساحات وجدانية شاسعة نسبيا، وأن يبدع دائما التجارب الوجدانية المتجددة الحيوية موفرا للقصيدة بحقائقها الفنية حد التعادل مع الحقائق الخارجية موجها عالمه الوجداني صوب غايته، دون أن ينحرف لمهاوى التفسيرات المثالية والأخلاقية، وأن يضع صوته في الموقع الصحيح للوجدان الفلسطيني العام، محطما الحواجز الطبقية التي ينتمي إليها منطلقا إلى آفاق أرحب

للأحكام العاطفية، كما يبدو من حملته على ملاك الأراضي ودمغهم بوصمة الخيانة.

أما سماسرة البلاد فعصبة
عار على أهل البلاد بقاؤها
هم أهل نجدتها وأن أنكرتهم
وهم وأنفك راغم زعماؤها
وحماتها وبهم يتم خرابها
وعلى يديهم بيعها وشراؤها

لقد استطاع صوت إبراهيم طوقان أن يتسلل عبر مفاهيم عشرات السنين ودلالات مئات الأحداث وأن يتشابه اليوم لحد ما مع صوت الموجة الثورية للشعر الفلسطيني المقاوم.

لمن أنت يا وطني العربي..
اتسعت فكنت البلاد جميعا..
وضقت فما أنت ألا لصف
جياعك
أو بائعيك

(أحمد دحبور – طائرات الوحدات)

ذلك لأن التجربة الشعرية لإبراهيم طوقان التي لم تتنازل عن القضية الوطنية لم تتنازل تحت أية دعوى عن حسها الطبقي، وحضور هذا

الحس الاجتماعي يسم تجاربه ليس بالصدق وحده وإنما بالأصالة والعمق والاستنارة، ويساهم وجدانه الجدلي في تذويب هذه العناصر كافة في مناخ تجاربه العاطفية على تعددها موفرا للعمل الإبداعي عناصر الجمال والشرط الإنساني.

أرأيت مملكـــة الربيـــع
يعيـــد رونقهـــا الربيـــع
ويتـــوج الراعي بهـــا
ملكـــا رعيتـــه القطيـــع
آزار في رحب الفضاء
ســـفير دولتـــه الرفيـــع
هاتيك ألـــوان تشـــع
وتلـــك ألحـــان تشـــيع
لمـــن الربيـــع وطيبـــه
وهواه والزهـــر البديع
فرح الربيـــع لمن لـــه
أرض، وليـــس لمن يبيـــع

(لمن الربيع)

كشاعرصادق الوطنية، ونقي الشعور، حمل تيار الطهارة الفنية التجربة الوجدانية على التجاوب مع تطور الحركة الوطنية، بالتخلي عن أوثانها بتحطم هذه الأوثان في الواقع، فبظهور المقاتل الفلسطيني ربيب

المخيم تصدعت القناعات العاطفية لكمال ناصر، وبدأ طريق الكفاح الشاق والمسلح يجذب بأضوائه الساطعة عالم القصيدة، بمرونة نادرة.. وطواعيه فكرية، وتعكس التجربة الوجدانية تمزق القناعات الفكرية البالية وانبثاق الإيمان الجديد بالانطلاقة الثورية المسلحة، مرورا على أنقاض التصورات الذاتية لقد حمل التطور الجديد في ثناياه حملة حساب للنفس، ونقدا ذاتيا لها، ورفضا لتصوراتها المريضة كضرورة لبدء مرحلة حاسمة من تطوره الشعرى.. والنفسى.

ثورتنـــا للمجـــد يـــا شـــعبنا
ماتـــت بعينيهـــا طيـــوف المـــنى
وانهـــزم التـــاريخ في دربنـــا
وتـــاه في صـــحرائنا مثخنـــا
لا بطـــل يمشـــى إلى حتفـــه
مـــؤزرا مغـــامرا مؤمنـــا
ذلت قلوب الناس واســتفحلت
عصـــابة مجرمـــة بيننـــا
صرخـــت في يأسى وفي حرقتي
ما أحقـــر الشعب ومـــا أجبنـــا
ولاح لى طيف غريـــب الخطـــا
يشـــقى بـــأحلام العلـــى موهنـــا
يـــدب في مشـــيته راعشـــا
وبـــين عينيـــه يمـــوج الـــونى

وراح يحكـــى عـــن بطولاتـــه
وسحر مـــا أبـــدع بـــين الـــدنى
وأصغيت في ذعـــر لـــه قاتـــل
وقلت يـــا طيـــف المـــنى والهنـــا
هذى بلادى أصبحـــت ملعبـــا
يحكمها في الدهـــر أهـــل الخنـــا
فهـــل تصـــديت لطغيـــانهم
عســـاك أن تحـــيى لنـــا مجـــدنا
يا طيف هـــذا خنجرى في العلى
فاضرب به أضرب جارحا مؤمنـــا
فأطبق الطيـــف علـــى نفســـه
ذعـــرا وولى شـــاحبا أرعنـــا
يـــدب في مشـــيته راعشـــا
وبـــين عينيـــه يمـــوج الـــونى
يردد الوهم صـــدى نفســـه
ما أحقر الشعـــب ومـــا أجبنـــا
ولاح دمعـــى فـــوق أجفانـــه
يا خجلـــى في المجـــد هـــذا أنـــا

(الطيف الجبان)

لقد بدأ تخلى (الأنا) عن زهوها القديم وعن إيمانها بفاعلية (نا) النخبة الذى منحها الحق في التعالى والقيادة والترفع، بعد أن تبدلت الأوضاع الكفاحية للقوى الاجتماعية وتغير أسلوب المقاومة والنضال، ومسايرا الواقع انبثق إيمان كمال ناصر بالشعب الفقير كقوة ثورية تهيأت لها الظروف، بعد أن شقيت الحركة الوطنية الفلسطينية بقياداتها القديمة، وتخبطت في طريق العودة وعقم الأساليب المتبعة. وتسجل القصائد هذه التغيرات بنقلة واضحة لمركز (نا) المتكلمين والتي كان لها موقع الفاعلية في (خياما تعلمنا أن نظل قلوبا تجمد فيها الحجر) إلى موقع متدن يحمل أمانيه للفئات الأرسخ وطنية وثورية.

آلامنا والشعب يحملها
عذراء تزف في سما الخطب..
نبضت بدنيا الغدر دامية..
تحدو بنا في موكب العرب..
يا سارق الأحلام في بلدى..
آمنت بعد الله بالشعب

(إيمان)

يتحرك المسار العاطفى للتجربة الوجدانية، من محور الدعوة لتنظيم الصفوف إلى موقع التمجيد لفدائية الأنبياء الصغار، أنبياء البؤس والفاقة والأسي، ويتجرد مصطلح الشعب من رحابة التعميم مكتسبا لونا جديدا معلقا بندقيته على أطماره البالية التي تغطى جسده الممحوق المحروم من مسببات الحياة إلا ما تهيؤه له مائدة وكالة الغوث.

وتغير النبع الذى تستقى منه التجربة الشعرية مفاهيمها حول بواعث الثورة من نبع نفسى ضحل، كحفظ ماء الوجه وتضميد جرح الكرامة والكبرياء المهيض، وإباء المهانة والذل إلى نبع نفسى أعمق منه، باستناد إرادة التحرر والانطلاق الثورى إلى بواعث أقوى تتمثل في المشاعر المترتبة على الأوضاع المتدنية للواقع المادى الأليم "فانطلاق الحرمان أخلد نصرا في مجال الكفاح والاقتحام" وبناء على هذه المعطيات الوجدانية تحولت صياغة التحريض من استثارة شباب الأمة إلى استنهاض همة بؤساء الخيام المحرومين.

مزقى يـــا خيـــام أردية الـــذل
وميـــــدى مجنونـــــة بالنيـــــام
مزقـــى هـــذه الخرائـــب وارمى
ببقايـــا أطمارهـــا والحطـــام
وذريها علـــى الريـــاح عـــويلا
مرهقـــا في مســـامع الحكـــام
وانشريها على التـــلال عذابـــا
خالـــدا في خـــواطر الظـــلام

فإلى أي مدى تبنت التجربة الشعورية مشكلة العدالة الاجتماعية، كمشكلة لابد أن يبرزها النمو الوجدانى، استكمالا لجوانب الرؤية، التي خلعت دور البطولة وأناطته بفدائى المخيم المطحون.

لقد استمرت التجربة الشعرية مصرة على إظهار القهر الاجتماعى من ثنايا المعضلة الوطنية، ومرهونا بوجود هذه المشكلة، وهى أن قامت بالإشادة بالدور المجيد للبطل المقهور اجتماعيا، وببذله الدماء على ساحة حركة النضال الوطنى، لم تشف عن أدنى نوايا لتغيير الواقع الذى يتحرك منه بائس الخيام الفقير، كما لم تسفر عن الوجه الحقيقى لدعوتها الاشتراكية ومضمونها، ومن هنا يأتي اختلاف التجربة الشعرية لكمال ناصر وتميزها على مسار التطور الأدبى لحركة الشعر الفلسطيني، فتتباين عن الموجة الثورية الحديثة للشعر المقاوم في عزفها على وترى المشكلة الفلسطينية الوطنى والاجتماعى معا "بعد اندلاع الجوع تمتشق القبيلة، أحزانها البيض النبيلة، وتحز أعناق السمان من الرجال" (أحمد دحبور — البحر والمسافة).

فهذه الحدود البعيدة التي تناهت إليها حركة الشعر الفلسطيني لم تغر التجربة الوجدانية لكمال ناصر بالمغامرة والسفر إلى البعيد فيما يخص شكل المستقبل، على الرغم من حسها الوطنى الرفيع، ربما أن الذوق الثقافي الذى حمل تجربته الشعورية ما كان بإمكانه الإبحار إلى هذه الشواطئ بشراعه الممتلء بالتناقضات والمشاعر المتضاربة.

لقد رأينا كيف أن الإرادة الثورية انطلقت من عوامل نفسية أعمق من تلك التي دأب العالم الوجدانى على النهل عنها وترديدها، وإن احتفظت بطابعها النفسى، وهى إذ تلغى الدور الحاسم للعامل المادى وارتباطه بالانفجار الثورى تقوض شرعية الثورة وتهدم صرح نظرية الحق، ويتقلص

بالتالى مفهوم العنف الثورى إلى مجرد مشاعر وشهوات حيوانية وأحقاد وضغائن ورغبات في الانتقام.

حبل الحقد بـــالقطيع وثـــارت
شـــهوات الجـــراح في الأغنـــام
واستفاقت ضغائن الشعب تدعو
حقهـــا في الوجـــود والانتقـــام
فانهضى يا جموع وانتشرى حقدا
وحـــوطى الكفـــاح بالاعـــــلام
واعصفى بالدخيل وأزهى علـــى
الحب ذليلا بل واهزأى بالســـلام

ومن غير المتصور أن يتم قبول هذه القيم إلا تحت ضغوط الواقع الاستثنائى الذى يفرضه وجود الاحتلال. فالقاعدة العامة للمجتمع الإنسانى هي الحب والسلام. لا الأحقاد والضغائن التي يتم تقبلها بصفة مؤقتة.

ومن هنا تبرز حدة التناقضات لا التي تجلت على مستوى التجربة الشعرية، بل التي عانى منها كمال ناصر وتمزق على حساب اكتمال الشخصية والتكامل النفسى.

فعلى صعيد الواقع تعاطف كمال ناصر مع حركة الكفاح المسلح، وخص بعاطفته الفدائى كليا وإلى النهاية، مؤمنا بالبندقية كالطريق الأمثل. للجهاد ضد عنصرية إسرائيل، وتقبل حتى تصوره المشوه لفكرة

العنف الثورى، بعد أن نزع مشروعيته وقلصه إلى مجموعة من البواعث النفسية الشريرة الفاسدة. التي تتنافى مع المثل الإنسانية. وكان عليه بعد هذا أن يقسر نفسه على الانسجام ويجبر تفكيره على التلاؤم، والرضوخ لهذا التصور، ولكنه من بداية الطريق تصادم مع نفسه لا كمثقف برجوازى فحسب وإنما كمسيحى شديد الإيمان بالقيم المسيحية، وأملت عليه تناقضاته الفكرية أن يحسم مشكلة الأخلاق المسيحية وقيم الطيبة والصفح والسلام لحساب فكرة الشر، ولقد كان في غنى عن كل هذا التشوش لو أنه أدرك مشروعية العنف الثورى وموضوعيته، بتأسيس تصوره لعوامله على الواقع المادى وظواهره دون أن يجرفه التيار الأخلاقى لتفسير الأمور إلى الحد الذى يضطر عنده إلى قبول اللاأخلاقى والتنازل عن الإيمان.

باتضاح معطيات التجربة الشعورية، وقناعاتها الأساسية، فيما يتعلق بالحس الطبقى قد يكون من الأهمية تبين اللحظة الاجتماعية في شعره.

ومما لا شك فيه أن طبيعة تصوراته الفردية تركت بصماتها على هذه اللحظة، فلم تستطع مشاعره أن تفلت منها وتشق طريقها بين المتاهات الكثيفة المحدقة بنظرته الوجدانية لتصل إلى الأبعاد الحقيقية لفكرة الظلم الاجتماعى، وانقسم العالم إلى ضعفاء وأقوياء لا إلى فقراء، مستغلين، وأغنياء مستغلين، وبهذا التصور تهاوى الواقع من وضع طبقى إلى عيب أخلاقى، ومن ظاهرة عامة إلى حالة خاصة تثير الشفقة والرثاء كحالة اليتيم.

من لهـــذا الضـــعيف في الـــزمن
الظالم غيـــر الدمـــوع ملء أهابه
من لهذا القلب الشـــقى المعـــنى
جردتـــه الأيـــام مـــن أحبابـــه
من لهذا الشجى يغمره الحـــزن
سوى المنعـــشـــات من أكوابـــه
(اليتيم)

بمنطلقاتها المنحرفة تنحو التجربة الشعورية باتجاه إظهار الشرور المترتبة على هذه الحالة فيما يتعلق بأثرها على استتباب أمن الوحدة الاجتماعية، تمهيدا لاستثارة مشاعر النخوة والرحمة بصدر الهيئة الاجتماعيةن للعطف على هذه الحالة وأدراكها قبل أن تتمادى في سقوطها لمهاوى الضلال. ولا يخطر ببال التجربة الشعرية أن تبلور القهر الاجتماعى متعاطفة مع الحق المغتصب، ضد جناية المجتمع ببنائه الشاذ على المصير الإنساني.

سار في حمـــأة الخنـــا لا يبـــالى
ميـــت الحـــس فاقـــدا لصـــوابه
فـــإذا الـــداء ارقـــط يتلـــوى
فوق صدر مشى الضنى في رحابـــه
عابث يزدرى الفضـــيلة جهـــرا
رب مســـتهتر ســـعى في خرابـــه

لم يكن مجرما وما كـــان وغـــدا
انمـــا اليـــتم مجـــرم في عقابـــه

وبواقع هذا التصور تصبح مسألة الأوضاع الاجتماعية مسألة حظوظ، والتفاوت الاجتماع صدفة، والظلم قدر، والبؤس استثناء وما علينا أمام هذه (الحالة) الاستثنائية إلا أن نبسط جناح الذل من الرحمة، متيحين الفرصة للمصادفات السعيدة والحظوظ الهنية لتلهو الأقدار فيصبح الضعيف قويا والمحتاج غنيا، ولا بأس أن يشفق الأقوياء لانتشال الضعفاء من مغبة الانحدار والضياع بالإحسان والبر والحنان.

كم يتيم جنـــت عليـــه الليـــالى
عبقـــرى الفـــؤاد أروع نابـــه
لو حبته الأيـــام حظـــا وعطفـــا
لمشى المجـــد والغـــنى في ركابـــه
أيها ذي الأكف سيلـــى حنانـــا
وانبرى كالغمـــام عند انسكابـــه
إنما أنت راحـــة الله للإحســـان
بل أنـــت ديمـــة من سحـــابـــه

* * *

لم يشغل "الصهيوني" حيزا متسعا من رقعة التجربة الشعرية لكمال ناصر، بل انكمش في زاوية من زواياها، ولم يسمح التناول الشعرى له بالبروز مجللا بالعار، أو مصحوبا بمشاعر عداء لاهبة مضرجة بالغضب والتحدى، كما قد يتصور من شاعر وطنى، ومن تجربة شعرية تتنامى داخل إطار المقاومة والنضال، فقصيدة "يا دولة التيمس ابعدى عنا أذى الشعب الطريد" قصيدة في الحقيقة لم تتكرر. على امتداد عمره الأدبى لقد أفاق من كابوس النكبة، ليتجه بروح عملية متوثبة متلمسا طريق العودة، بالدعوة إلى الوحدة وتنظيم الصفوف وحشد الإمكانيات المادية والروحية اللازمة لإحياء الحلم، وتحقيق الأمل، أما ثورته على المهانة والقهر الوطنى فلقد وجهت كل اهتمامها للواقع العربى معرضة بسلبياته مستهدفة إيجابياته. باحثة عن المقومات الواقعية التي تجعل من الإرادة الوطنية والقومية كيانا ملموسا مؤثرا وبناء.

وبهذه الروح العملية أهملت التجربة الوجدانية باتزان إشاعة روح البغضاء وإيغار الصدور وفنون الهجاء والحماس اللاهب المفرط في سخطه وفى غضبه، وتدخلت كل هذه العوامل لتتغاضى التجربة الوجدانية عن "الصهيوني" وإن استهدفته في النهاية بكل ما تدعو إليه، وتكافح من أجله، ولم تتوقف اللحظة الوجدانية مركزة أضواءها الشعورية عليه ولم يعد في تصوراتها أن يكون صعلوكا من الصعاليك المتطفلين على التاريخ، ما أسرعها في الانصراف عنه جادة في البحث عن عوامل القوة والانتصار.

أيها الشرق والخلافات ألقـــت
من ظـــلام الأذى عليك السدولا
كل قلب لديك يرزأ بالخطـــب
ويشـــكو التشـــريد والتنكـــيلا
حسبنا حفنة الصـــعاليك تغـــزو
من فلسطيننـــا الـــربى والسهولا
وطن المجد والكرامـــات لسنـــا
بك نرضى مشـــارف الكون غيلا
فالجنان الخضراء تدعـــو بنيهـــا
تتنـــادى بهـــم وتـــأبى البـــديلا
تتمنى لو ينـــثنى العـــرب شمـــلا
في مجال الكفـــاح سيفـــا صقيـــلا
(يا رسول الجمال)

المعطى الجوهرى للتجربة الشعرية، يمس واقع القضية، كجريمة، جريمة العمر هذى من يفسرها؟... "فجريمة من هي إذن، إن لم تكن جريمة صهيونية، تشير التجربة الوجدانية بإيماءة خفيفة إلى الغرب" بروحى بلاد شرد الغرب شعبها... فراحت تقاسى من دسائسه الجورا "كما أنها تشير بأصبع الاتهام، بوضوح إلى الرجعى العربى والزعامات العميلة:

فلاح لى كوكـــب بالمجد مؤتلـــق
يشـــع في جنبـــات الأفـــق ملتهبا
فرحت أسأله عن ســـر نكبتنـــا
فاهتز في برجه المخزون واضطـــربا
وراح يرمى شواظا من صواعقه
يشيـــر فيها إلى حكامنـــا غضبـــا

(جريمة الأمس)

تتعلق التجربة الشعرية لكمال ناصر بأذيال الواقع، فإذا كان قد أقام صرح معطياته الوجدانية على أساس الحقائق الخارجية، فلقد طرح تصوره التاريخى من خلال منظور أخلاقى. وإذا كان قد توصل إلى الجوهر الاستعمارى للمأساة، وإلى العلاقة التي تربط بين إسرائيل والامبرياليتين البريطانية والأمريكية، فإن تفسيره الوجدانى لا يرقى لمستوى وعيه التاريخى. وتتوتر التجربة الشعرية باتجاهاتها الفردية، لتتسرب طاقة الوعى الشعورى عن المسارب الصحيحة، ويزلق الأداء الشعرى بحدة إلى مجموعة من التصورات النفسية.

يا عبيـــد العبيـــد يـــا دخـــلاء
ضجت الأرض مـــنكم والســـماء
اضحكوا واهزلوا ففي غفلة العمر
سيلهـــــو ويضـــحك اللقطـــاء

الدعارات والضـــلالات تخـــزى
بجهـــاد قامـــت عليـــه النســـاء
وعيون التاريخ ترقـــب حـــرى
دولـــة صـــاغها الخنـــا والبغـــاء
اسألوا الإنجليز كيف اســـتباحوا
عرض أبكارهـــا فهـــن الفـــداء
أســـألوهم فكلـــهم في هواهـــا
نـــزوات مريضـــة واشـــتهاء
شـــيدوها مســـتنقعا للـــدنايا
فازدهاهـــا التقويـــد والخـــيلاء
دولـــة للخنـــا أقـــام بهـــا
الأثم وماجـــت في رحمها الفحشاء
لأميركـــا فيهـــا يـــد وعليهـــا
مـــن تعاويـــذها رقـــى ودعـــاء
ولدتها مسخا سفاحـــا حرامـــا
فهى قد أجهضـــت بهـــا شوهـــاء

(اللقيطة – ربيبة الإنكليز والأميريكان)

يمهد النبض الأخلاقى للتاريخ – في التجربة الشعرية – الطريق لبلورة المعطى الوجدانى الأساسى لمجموع التجارب، والذى انبنت عليه أبعاد الرؤية الشعورية وتنامت على امتداد العمر الأدبى، فكما اتجه

الأداء الفني اتجاها نفسيا وأخلاقيا في تفسيره للظاهرة الاستيطانية، كظاهرة دعمتها الثروات الفردية لرجالات الإمبريالية البريطانية تناول أيضا بالكيفية ذاتها موقف الزعامات العربية والقيادات الفلسطينية كما سبق القول.

وتظل محكات التجربة الشعرية ومنطلقاتها، محكات ومنطلقات صحيحة على الرغم من تقلص فكرة التاريخ. وهو ما يبدو ملموسا بوضوح في اتجاه عاطفة العداء إلى إسرائيل وكل من إنجلترا والولايات المتحدة. وإلى التشهير بقيادات الحركة الوطنية الفلسطينية. ودورهم البائس في بعض المراحل السابقة.

يحجب تحول الظاهرة الواقعية إلى ظاهرة نفسية وأخلاقية التفسير السديد للأمور، وتخبو الطاقة الثورية للتجربة وتقل قدرتها على الإقناع العاطفي ووظيفتها في التحريض والاستثارة إلى حد ما، بغض النظر عن المتلقي. فبتوالد المشاعر في وسط آخر غير الوسط التاريخي بحركته المادية المتعقلة تتلاشى في أفق الرؤية الفردية الحقائق الخارجية وبالتالي تتخلخل الحقائق الفنية المعادلة الموازية لها، وتهتز الواقعية، وتتحول المأساة الفلسطينية إلى مجموعة من الخيانات والعيوب الخلقية المشينة والاستثنائية من قبيل "فمرحى لأبي يبيح هتك حسانه".

ومن الطبيعي مع تقلص فكرة التاريخ، في دوامة الواقع غير المتميز التركيب، أن يهبط الاستفسار بالنكبة إلى مواطن التساؤل "جريمة العمر هذه من يفسرها" وهو سؤال في محله، مادامت الأسرار قد

اكتنفت المواقف بتميع الحدود، وبغياب الحس الطبقى الكفيل بترشيد التجربة والتأمل. وإذا كان كمال ناصر قد وجد إجابة عند الغرب "ومن خلفها الغرب (الرخيص) يسوسها... وللغرب أخلاق إذا استعرضت تشرى" وكذلك عند القيادات "كل يوم لنا خطيب جديد... يتلهى عن حقها بخطيب"، فهذه الإجابات بلا شك لم تكن بالإجابات الحاسمة ولم يكن بمقدورها أن ترضى نزوعه إلى المستقبل – الحل، ولا أن تشبع حنينه التواق للعودة للدار التي اغتصبت.

ومن ثم اتجه المنطق الوجدانى إلى بلورة قناعته الأساسية على هامش حسه الطبقى الخافت، ومشاعره الدينية القوية. وامتدت رقعة المعميات الشعورية لتشمل مجموعة الحقائق ذات الصفة الرئيسية والقيمة المتزايدة لتوضيح جوانب الرؤية وواقعيتها، وغلف معطى الخطيئة المأساة.

وبتجسيم المأساة الفلسطينية في المعطى الشعورى – الخطيئة، اشتد شعوره بالجرم إلى الحد الذى دفعه لأن يتمثل وزر الأنظمة والقيادات كجرم شخصى وربما دفعته الحساسية الذاتية المرتفعة إلى هذا الموقف الذى لا يحسد عليه، ولكنه من ناحية أخرى هيأ له بإثارته لكوامنه الدينية أن يستخلص الأمل – الخلاص من فكرة الشر – الخطيئة، كما تصورها، وكما امتلكت مشاعره، وسيطرت على عالمه الفني.

ومن الخطيئة إلى الأمل تدفقت الروافد الوجدانية وتيقظت مشاعره الإيجابية مفتشا عن الطريق.

الفكرة القومية

لا يمكن الاستدلال بالقياس الإحصائى لكم القصائد، التي أفردها كمال ناصر للتغنى بالوحدة وللوحدة، عن عميق ارتباطه الوجدانى بفكرة الوحدة العربية، وهى أبرز الخصائص الفكرية التي تتبلور حولها وبها شخصيته الأدبية والسياسية، فباستثناء قصيدة "من وحى الوحدة" والتي نظمها بمناسبة الوحدة المصرية السورية، لم يخص الموضوع بقصيدة كاملة، وإنما طغى شعوره القومى، وعاطفة العروبة القومية، خلال العديد من تجاربه الشعرية، خاصة خلال مراحله الأدبية الأولى.

وقد يكون ذلك راجعا إلى تسيد النزعة الكلاسيكية على مجموع تجاربه الأدبية في هذه المراحل، مما لون نتاجه الشعرى بروح الخطابة الجزلة، والتعلق التقليدي بالمناسبة، والانفعال الحماسى المتوهج الاندفاع بالحدث وبالموقف، فاللحظة الوجدانية في معظم قصائده تتزامن واللحظة التاريخية، وتتعايش الكلمة مع الفعل تعايشا لم يسمح لطاقة التأمل الأدبى من بناء رؤية شعرية مستقلة فنيا، بحقائقها، وأبعادها، ومفاهيمها، ودلالاتها، وإيحاءاتها، عن الحقيقة الخارجية والتجربة العامة. واتسمت

قصائده بالوضوح، والمماحكات الذهنية المنفعلة، وهى خصائص تجعل من الصعوبة أيضا – تبين رسوخ مشاعره القومية من التجلى العاطفى للإبداع الخيالى، وخصوبة التصوير الفني للفكرة، والإشعاع الإيحائى المتعدد الدلالات للكلمة الشعرية كرمز وكدلالة عاطفية. فمصطلح الوحدة في شعر كمال ناصر مصطلح سياسى، ذهنى لا عاطفى تقريرى لا أدبى.

طلائع الوحـــدة هـــذى فقـــل
تبـــارك الكـــبر بهـــا والســـماح
لمصرنـــا والشـــام منهـــا جناح
وللعلـــى والمجـــد منـــها جنـــاح
تـــرف آمـــالا علـــى شـــعبنا
خفاقـــة تخطـــر في كـــل ســـاح
تصمـــد للطغيـــان لا عاصـــف
يهزهـــا ولا عـــتى الريـــاح
للنـــور فيهـــا مشـــعل خالـــد
معـــرورق بالعـــز نشوان ضـــاح

(من وحى الوحدة)

على هذا المنوال ينطلق الخيال على سجيته دون أن يسمح للتأمل الفني بالتدخل لبلورة التعبير والتصوير، فيرتجل التشبيه ارتجالا ويبنى صوره جانحا للبساطة الشديدة لا إلى الابتكار والتركيب.

لم يتبلور وجدان الوحدة في شعر كمال ناصر خلال رؤيته الفنية بمعزل عن حركة التاريخ الفلسطيني، وإنما انبعث من أعطاف هذه الحركة، ممتزجا بوجدان التحدى الوطنى، وكأحد المقومات الأساسية التي ترتبط جدليا بهذا الوجدان، فتطور بتطور حركة الكفاح، مصاحبا الحركة الثقافية والأدبية التي أنبنت على واقع النضال وظروف القضية.

***

ينهض الحس العاطفى بالوحدة العربية، في شعر كمال ناصر، على أكتاف قناعة موضوعية أساسا، فالعاطفة القومية ليست مجرد وجدان عنصرى أو نزعة عرقية، وإنما إيمان بحقيقة واقعية، فنظرته إلى وحدة البلاد العربية تتحقق في إطار مداركه لها كأمة، تتوافر لها كل المقومات الموضوعية للأمة: الأرض اللغة والتاريخ والمصالح الاقتصادية والأمانى الإنسانية والثقافة المشتركة، ففي الزمان العربى، والمكان العربى، يتحسس ذاته مشروطة بهذه الارتباطات الاجتماعية، وبموضع أناه كوجود طبيعى داخل هذا الوطن الواحد الرحب.

"أنا من هناك ومن هنا في كل عاصمة أنا
وطنى الكبير يحده قلبى على هذى الدنى
وطنى الكبير يحده التاريخ دربا مؤمنا
أنا من هناك ولم أزل في بعث أمتنا هنا
علقت بين نجومها الشهباء أحتمل الضنا
ونحت في صحرائها وسهولها لى موطنا

في مصر، في بغداد في لبنان آمال لنا
لا ندعيها.. إنما أحلامها تجرى بنا

(أغنية جزائرية)

ولا أدل على موضوعية مشاعره القومية، وإنسانيتها، من أنه وهو المسيحى الشديد الإيمان بالمسيحية، يشب فوق كل حس طائفى ودينى محدود النظرة، ويبرز الدين الإسلامي كأحد المقومات الجوهرية للوحدة العربية، وربما يغالى في ذلك بعض المغالاة، فيعتبر الإسلام المقومة الجوهرية للأمة العربية، والمنطلق التاريخى لها، فينطلق موجها الخطاب إلى الرسول في قصيدته "شاعر في العيد — ١٩٥١": "أنت شيدت للعروبة صرحا... قدسيا موطد الأركان، وسنحميه رغم أنف الليالى... وسنمشى به إلى الحدثان، وحدة العرب لم ينم عنك يوما... عربى ينتمى إلى عدنان".

وإذا كان كمال ناصر قد اقتنع بذاته القومية موضوعيا، فمن ناحية أخرى يكشف عن الوشائج الروحية العميقة التي تربطه بالتاريخ العربى، كتاريخ حى ويقظ، فهو ينتمى إلى الواقع العربى الراهن، مرتبطا بخصائصه النفسية ومكوناته بالماضى العربى بثقافته وتصوراته وأفكاره، والقرابة التي تجمعه بالعربى المعاصر في سوريا ولبنان والعراق والسعودية واليمن والجزائر....، تربطه بوشائج أقوى بالعربى الجاهلى والإسلامى والأموى والعباسى...، أنه ذات موصولة بالواقع العربى الصامد بعروبته على ساحة النضال تحت سماء الشرق:

يا خيال الصحراء يزكى خيـــالى
لا الأمـــانى ولا التشـــوق ينســـى
أنا لى من هناك ذكرى انطـــلاق
من حنايـــا الماضى ومحراب قدسى
أنا لى من هناك شيطان شـــعرى
يتهادى مـــا بـــين جـــن وإنـــس
رقصـــت فيه للفصاحـــة أوتـــار
نمتـــها فى الفـــن أوتـــار قـــس
ولوادى العقيـــق عـــرس يتـــيم
أوقفتنـــى عليـــه أوهـــام عرسى
أين منى الكواعب السمر تلهـــو
بالصبـــا الحلـــو والشذا والدمقس
صور من رواسب الأمس تحيـــا
في خيالى النامى وتضحى وتمسى
للعشايـــا على حداهـــا ظـــلال
حالمـــات من عهـــد ليلـــى وقيس

العاطفة القومية عاطفة تحررية، فالفكرة القومية وليدة الصراع من أجل التحرر والاستقلال، ولا غرو أن تنبعث الفكرة القومية بكل جيشانها القوى في صدر كمال ناصر في فترة مبكرة، ثم تستمر في النضوج واستكمال ملامحها، متدرجة من فكرة مطلقة ذات ملامح

مثالية إلى فكرة موضوعية وحقيقة واقعية، بتأثير معايشته للنضال الوطني والتمرس والدراية بحقيقة القوى المصطرعة داخليا وخارجيا، وليس بغريب أن يتنبه السوريون قبل غيرهم إلى الفكرة القومية، وهم الذين تعرضوا أكثر من غيرهم للتفتت والتقسيم السياسي المصطنع في غضون وأعقاب الحرب الكونية الأولى، وليس بغريب، أن تتوجه أنظار أبناء سوريا الجنوبية – فلسطين – إلى هذه الفكرة ويتعشقوها، وقد تعرضوا دون غيرهم للحملة الإمبريالية التي استهدفت اقتلاعهم من جذورهم الوطنية والقومية. ومن الطبيعي أن ترتبط العاطفة القومية وتتبلور في مواجهة الاستعمار والاستيطان الصهيوني، ومن خلال الحس الوطني المقاوم المتمسك بالأرض والعروبة.

ولقد نظر كمال ناصر دائما إلى الحدود السياسية، كحدود مصطنعة لا تتفق مع الواقع العربي الواحد، ولا تهيئ التماسك الكافي لخوض غمار النضال في سبيل التحرر العربي، "تلك الحدود التي شلت توثبنا... من صنع غدار بنا لعبا، وكل من يدعي فيها سيادته... يريد أن يسحق التاريخ والعربا".

بارتباط التجربة الشعرية، بحركة النضال الوطني، تتساقط عن شجرة الفكرة القومية أوراقها الذابلة المزيفة، كلما هبت العواصف وارتفعت أذيال الادعاء لتكشف عن دناءة العملاء، وتناقضهم مع الأماني السياسية والقومية للشعوب العربية. لارتباط مصالحهم بالمصالح الإمبريالية، وعلى مراحل، وبالممارسة، اكتشف كمال ناصر حقيقة

القوى التي تقف في جانب الاستعمار، وبالممارسة أيضا أدرك موقفهم المعادى للقومية العربية وللوحدة العربية. ولكن إلى أي مدى استطاع أن يعبر جسر المثالية الضيق، ويبلور رؤيته للوحدة، حيث تتلاقى أمانى التحرر الوطنى،بأهداف التحرر الاجتماعى، بأن يتسع مفهوم الثورة الوطنية ليشمل التأكيد على ان المرور للمستقبل العربى، لن يتم إلا بتصفية القوى الاجتماعية الضالعة بالمشاركة مع المخطط الاستعمارى، أهدافه ومصالحه.

إذا كان كمال ناصر قد اكتشف خيانة الأنظمة والسلطة والزعامات، فمن التزيد القول إنه توصل إلى حقيقة التكوينات الطبقية التي تقف عقبة في سبيل التحرر، وفى سبيل الوحدة العربية، بل ووحدة القطر الواحد، فالاحتكاك الوجدانى بالبناء الطبقى استغرق وقتا طويلا قبل أن يتنبه إلى قوى التحرر الحقيقية، وقوى الوحدة الفعلية، وعلى الرغم من أن عاطفة القومية انبعثت من إطار موضوعى، فإن المسألة الهامة لم تحسم دفعة واحدة في تجربته الشعرية بالنسبة للقوى التي بإمكانها تحويل الحلم القومى إلى واقع، وظل كمال ناصر في نظرته ومفاهيمه صدى لأيديولوجية حزب البعث التي لم تكتمل هي الأخرى وتتضح إلا بمرور الوقت.

وإذا كان بالإمكان الجزم بأنه قد أولى المسألة الوطنية باهتمامه، فمن المستحيل بقراءة شعره على الأقل – التوصل إلى الأبعاد التي ينتهى إليها وجدانه الاجتماعى، فمن موقع بعثى ينادى في قصيدة

"في الصحراء – والخليج العربي" (١٩٥١ – ١٩٥٢) بتأميم آبار البترول، تسخيرا لإمكانيات الأمة العربية في معركة الاستقلال:

ذلك الأسود المطل من الأرض نداء الصحراء للانفجـــار
لـــو ملكنـــا زمامـــه لنســـجنا
مـــن شـــراينه عقـــود الغـــار
ورفعنـــا إلى الســـماء لوانـــا
واقتحمنـــا معاقـــل الفجـــار
أنه حقنـــا.. في ذمـــة الغـــدار
مـــا ضـــاع مـــن غنى ونضـــار
أنه حقنا فقل للملايين استجدى
مســـــــيرة بالشـــــــعار
وسنبنـــى به الحصـــون ونمشى
بـــــالملايين لـــــذة للثـــــار

إن فلسفة التأميم تتجه في القصيدة للدعوة للتحرر من الاستغلال الإمبريالى للموارد المحلية، ومن الصعوبة أن نستشف علاقتها، بالعدالة الاجتماعية، وهى إذ تشن هجوما على السلطة المتعاونة والمهادنة للاستعمار وعلى انتهازيتها وتكالبها على المنافع الشخصية، إنما تنطلق أيضا من حس المسئولية الوطنية:

يا خيال الصحراء مـــاذا دهـــى
الحكم فقد خاب فيه ظنى وحدسى
فكأن الرمـــال أسكرهـــا المـــال
وطهر الشـــرى أصيب بـــمـــس
وجمت همة السلاطين في الدار
وطابت ما بين صـــم وخـــرس
طعنوا وثبة العروبة في الشـــرق
وخانوا التاريـــخ باســـم الفلـــس

وإذا كان كمال ناصر قد هاجم الزعامات العربية بشراسة، حين تحقق من القهر الوطنى الذى تمارسه السلطة على شعوبها، فمن المستحيل تبين نظرته إلى القهر الاجتماعى، ويتبدى فساد الحاكمين في تجربته الشعرية أطماعا شخصية، وعيوبا خلقية، وتنافسا فرديا يتسابق للسيطرة، ولا شك أن الرواسب المثالية التي تحكمت في وجدانه قد وضعت اللجام حول انطلاقه الثورى، وألزمته بحدود لم يتجاوزها. هذه الرواسب التي ظلت تلقى ظلالا داكنة على أطراف تجاربه الشعرية:

دم الضحايا على أسوار قلعتنـــا
يجرى به في ثرى أوطاننـــا قـــدر
قد مات نورى ومازالت عصابته
طبيعة الأرض ألا ينتـــهى النـــور

ومن الطبيعي أن يضطرب عالم القصيدة ويتردى إلى الخلف خطوة، لانفصال فكرة السلطة عن الوضع الطبقي، هذا الاضطراب الذى ينعكس على التجربة الشعرية بتعليقها المفاسد على فكرة الشر المتأصلة في الكون، وطبيعة الأرض، وهو التفكير نفسه الذى يدفعه للتمسك بموقف أشد انحرافا "ما همنا أن بنينا صرح وحدتنا أقاده خالد أم قاده عمر" ومعميات التجربة الشعرية أكثر خطورة، والتناقضات الوجدانية والفكرية تزحف داخل عالم القصيدة ببرود حاملة معها ترددد المؤسف بين القوى الاجتماعية المتنافرة "ليس يدرى التاريخ من ذا يجازى... من بنيه قايين أم هابيل – (١٩٦٥)".

ولابد لنا هنا أن نشير إلى أن التنبه إلى التفاوت الاجتماعى، غير النظرة إلى معالجة هذا التفاوت، وتلمس التجربة الشعرية لكمال ناصر بإنسانية مرهفة الحس الوضع الاجتماعى، وتنفعل ساخطة السخط كله على الفرص الغير متكافئة التي تمزق بشر المجتمع الواحد إلى أغنياء وفقراء. وينادى كمال ناصر من أحضان البعث بفكرة اشتراكية:

فكرنـــا واضـــح المعـــالم بـــاق
والشـــعارات أمـــة لا تحـــول
قد نفحنا قومية العـــرب معنـــى
ســـاميا في رســـالة لا تـــزول
في اشـــتراكية تحطـــم ظلمـــا
تصرع البغـــى في الدنـــى وتزيل

فخلقنـــا في الثـــورتين وجـــودا
عالمـــا ثالثـــا إلينـــا يـــؤول

(وسيبقى البعث الأصيل الأصيل ١٩٦٥)

إلا أن قوى الكادحين لم تتحول إلى الثورة إلا بجهد، وقطعت التجربة الشعرية شوطا طويلا قبل أن تصل إلى الارتقاء بالشعب إلى مصاف الثورة. شوطا بدأه من "ما أحقر الشعب وما أجبنا" إلى يقين "تلك العطايا من جراح الشعب تغتفر الخطايا، والخلد أدرى بالدم الغالى وأدرى بالعطايا، الشعب أقوى والتفت وقد بدا حول سوايا.

فمن البداية، علق كمال ناصر أحلاما ليست بمحلها على مشجب الأنظمة العربية قبل النكبة، بمثالية صبيانية محدودة النظرة، ولم يلبث أن انثنى على نفسه، يلعق المرارة، ويجتر خيبة الأمل التي منى بها في الجامعة العربية، وفى الحكام العرب والملوك العرب، وتمزق خياله الوحدوى على صخرة التكوين الاقطاعى والعشائرى للزعامات العربية وغرامها الدنس بالشمطاء الإنجليزية والهيفاء الأمريكية، وتنفجر أجواء قصائده باستفهام مر يستقطب كل حيرته واستنكاره وغضبه:

ماذا فعلتم بالبلاد سوى القضاء على البلاد
يا عصبة الخير التي انتحرت على ثغر الجهاد
قوموا انظروا الشعب الفقير مشردا في كل واد
يشكو فلا تصغى له أذن ولا يؤويه ناد

أين العروبة ركبها الجبار ما بين العباد
فتشت عنها كل شبر في الوهاد وفى النجاد
فوجدتها كتلا تدب على النميمة والفساد

(إلى أقطاب الجامعة العربية)

ولغياب الوعى الطبقى، فسر كمال ناصر كما يتلاحظ مفاسد الحكم بظواهر أخلاقية ونفسية مريضة، واستدار بحرص ناحية الرعايا والجماهير، خارج السلطة، ويمثل هذا المنحى تحولا محدود القيمة، إذ لم يتبين التكوين الطبقى للجماهير التي توالى صراخه بتنظيمها:

فياوطنى أن تبغ عـــزا ورفعـــة
تموج بأحـــلام تظللنـــا دهـــرا
فنظم صفوف الشعب نظم سبيله
على هـــدف واع وحريـــة حمـــرا
ندق بها باب الحياة عقيدة
ونلهب في أرجائها العقل والفكرا
على حلم للمجد في ظل رايـــة
موحدة الآمال تستنهض الفخـــرا
تضم شتات العرب بأسا وعـــزة
يعانـــق قطر في عروبتـــه قطـــرا

وما إن خاب أمل كمال في الأنظمة العربية حتى طرق أبواب البعث، كحزب يلبي المطلب الوحدوى الذى يشعر به، بتنظيمه القومى الذى يتمناه، ومحتواه الاجتماعى الذى يتوافق معه، كما أن البعث له رصيده من الاعتزاز لديه لمناداته بالكفاح من أجل القضية الفلسطينية منذ عام ١٩٤٦م.

" البعث للجميع كلنا فداه ...
نعيش في وجوده في مطلع الحياه ...
نقية، خالدة كالمجد في صباه ...
غدا نعود عبره لدارنا الجميله ...
فتضحك العطور والزهور ...
وتهزج الأسوار والنسور ...
وتضحك الخميله ...

ومع الانتفاضات الثورية التي شهدتها المنطقة العربية، وصعود البرجوازية الصغيرة وتصدرها للحركة الوطنية العربية، بدأت مشاعر كمال ناصر تتفتح، وقد سحرتها الأحداث، واسترد ثقته الضائعة في الأنظمة العربية، وراودته الأحلام الوحدوية وقد تصورها وشيكة الوقوع، فزغردت التجارب الشعرية مع الانتصارات القومية التي أنجزتها هذه الثورات، في مصر بالذات، وازداد اقتناعا بعودة قريبة، وبأن الفلسطينيين لن يلبثوا أن يجمعوا خيامهم عائدين إلى أرضهم السليبة تحت رايات الوحدة العربية الخفاقة، خلف فارس القومية الممشوق القامة، الذى أهل

بسحنته العربية من ظلام الجرح الفلسطيني، وتعلق وجدانيا بسحنة العملاق المصرى، عبد الناصر، الذى حقق لرؤيته الوطنية طموحها في المقاومة والاستبسال والاستقلال، ويصدح كمال ناصر لسياسة الحياد، والتأميم وصفقة الأسلحة، ورفض الأحلاف، وانتصارات بورسعيد.

ويخص كمال ناصر عبد الناصر بتقديره، ويبدو أن عبد الناصر حقق تصوره للزعيم وللزعامة وهو تصور صوفى الملامح إلى حدود بعيدة، للطبيعة المثالية التي اتسم بها تفكيره، والتي ضخمت من مكانة الفرد وأهميته في صنع التاريخ، واندرج في شخص عبدالناصر الإشكال القومى والوطنى، وانضوت القضية الفلسطينية كما انضوت الفكرة القومية في أعطافه، لقد كتب كمال ناصر أجمل قصائده خلال هذه المرحلة، ولعل قصيدته "إلى جمال" ملخص دقيق لطبيعة تصوراته في هذه الفترة.

إليــك إليــك مــددت يمــينى
وبــين يــديك وضــعت يــدى
لأنى لمحــت بعينــك أمســى
وفي مقلتيــك لمحــت غــدى
فديتــك في حالكــات الخطوب
وغــيرك في العمــر لم أفتــد
أرى فيــك دنيــا بــلادى
تطــل علــى حلــم أوحــد

وأنـــت بهـــا قلبـــها العبقـــرى
وفـــوق ثراهـــا الغـــام النـــدى

خفقـــت علـــى رغبـــات بنيها
خفـــوق بنيـــا إلى المقصـــد

كأن الجهاد استـــفـــاق عليـــك
لتحمـــل عـــن صـــدره المجهـــد

فتـــبنى وتعقـــد نصـــرا أبيـــا
علـــى دربنـــا الثـــائر المرعـــد

وقبلك لم يـــزده النصـــر يومـــا
وفى شـــرقنا البكـــر لم يعقـــد

جمال واهتـــف باسمـــك جهـــرا
ولســـت انا ديـــك يـــا ســـيدى

أجلـــك عن همســـات العبيـــد
واختـــال باسمـــك للفرقـــد

وأصحـــو مع الفجر عند القنال
وملء وجـــودى فـــؤاد صـــدى

يعـــب مـــن المجـــد في لـــذة
وينحـــر مـــن أمســـه الأســـود

ســـلاحك شـــعب بإيمانـــه
وطئـــت علـــى حلـــم المعتـــدى

مشى للردى يستبيـــح الـــردى
وكـــان مع الفجـــر في مـــوعـــد

جمـــال ولى في فلســـطين حـــق
وحـــــق شـــــبابك لم أجحـــــد
هناك على الساحل العســـجدى
لنـــا ملعـــب ظـــامىء المـــورد
وفيه لنا ألـــف معنى جريـــح
يكـــــبر في قبـــــة المســـــجد
وفيه انطـــلاق شبابـــى الفتـــى
ومقـــــبرة وســـــعت مرقـــــدى
أحـــن إليـــه لـــدى صـــلواتى
حـــــنين المســـــيح إلى المـــــزود
وينشـــرنى الـــوهم في شـــاطئيه
فأخلـــو مع الوهـــم في معبـــدى
أفـــتش عـــن أمســـنا في ربـــاه
لأصـــحو علـــى واقـــع أســـود
جمال نريـــد انطلاقـــا جديـــدا
ونصـــــبو إلى عـــــالم أجـــــود
وأن ضـــل بعض الرفـــاق قليلا
فـــــلا تضـــــعفن ولا تحقـــــد
غدوت وحيدا علـــى الـــدرب
فاصمد سيخلو لك المجد أن تصمد
١٩٥٧/٦/٢

ومن الجدير بالذكر، أن كمال ناصر في مرحلته الناصرية، لم يكن إلا صدى للحركة الوطنية الفلسطينية التي انضوت تحت أجنحة الأنظمة العربية من جديد متطلعة إلى فجر عودتها، وهي مرحلة تركت بصمتها الواضحة على الحياة الأدبية وعلى الشعر الفلسطيني بصفة عامة، وما أكثر القصائد التي تغنت بعبد الناصر في هذه المرحلة، بالرغم من تباين مواقف واتجاهات الشعراء الفلسطينيين، فمحمود سليم الحوت يتوجه إلى عبد الناصر بنفس الأحلام التي وضعها بين يديه كمال ناصر:

متى نعود متى – قل يا جمال متى
فأنت وحـــدك من يدرى ويدرينا
أما الحلول التي نادوا بها ســـفها
لصـــون ما قد أقامـــوا في فلسطينا
فنحن ندرك ما يستهدفون بهـــا
وقد غـــدا غيـــر ســـر ما يكنونا

(ديوان ملاحم عربية)

أما معين بسيسو في شهر زاد وفارس الأمل – جمال عبدالناصر، فيسلم تسليما بالحلم الناصرى..

"فالـــشـــرق فـــي قمـــم النـــهـــار ....
الشرق نجم فوق جبهة مصر فارسنا جمال ...
ولـــــه عـــنـــــــــــاء ....

أشواق أجنحة الدماء لكى تطير ....
كفى ترفرف خلف قضبان وسور ....
وغرام عينى اللتين تغردان ....
للفجر أغنية السماء ....

(ديوان الأردن على الصليب)

كان البعث، هو التنظيم الوحدوى الذى يعمل داخل إطاره، كما كان عبد الناصر الفارس العربى الذى يعدو بجواد الانتصارات العربية. وبتحطم الوثنين، اهتدى كمال ناصر إلى الفجر الفلسطيني متأخرا، فلقد سبقته الشخصية الفلسطينية إلى الظهور بسنوات على المسرح السياسي.

أما البعث، فتداعى للانهيار أو بدا في اعتقاده بعد وصوله إلى الحكم، ثم بفشل الوحدة المصرية السورية، وما صاحبها من خلافات في صفوف الحزب... واكتوت مشاعر كمال ناصر بنار الأحداث، وعاش تمزقا نفسيا رهيبا، ممزقا بين عواطفه الوثيقة الارتباط بعبد الناصر، وبين ولائه للحزب، ضائعا بين الخلافات، واجتاحته مشاعر اليأس من البعث منذ هذه الوهلة إلى أن غادره ١٩٦٦.

"أتحبون أن أغرد للبعث وأشدو في عيده وأطيل ليس عندى فقد سفحت شبابى بين جنبيه فاحتوانى الذبول شوهت غربة المقاييس روحى من ترانى وما عسانى أقول"

(١٩٦٥)

وأما عبد الناصر، فلقد سقط عن صهوة جواده، بنكسة ١٩٦٧، ثم بقبوله لقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وأسدلت مبادرة روجرز ستار النسيان على مشاعر التقدير العميقة التي كنها قلب كمال ناصر له، وما أسرع ما نبض مع البرجوازية الفلسطينية الصغيرة، التي حركت بدمائها الحركة الوطنية، مهللا للفارس الجديد الممتشق حسام الفداء، وواثبا من قهر الخيمة إلى ثورية البندقية.

"وسأروى لك قصة ....
قصة عاشت بأحلام الأنام ....
قصة تنبع من دنيا الخيام ....
حاكها الجوع ووشتها عشيات الظلام ....
في بلادى، وبلادى حفنة من لاجئين ....
كل عشرين لهم رطل طحين ....
ووعود بالفرج .. وهدايا وبقج ....
أنها قصة آلام الجماعة ....
صمدوا عشر سنين في مجاعة ....
ودموع وأنين ....
وشقاء وحنين ....
أنها قصة شعب ضللوه ....
ورموه في متاهات السنين ....
فتحدى وصمد....
وتعرى واتحد ....

ومضـــى يشعـــــل ما بين الخيـــام ....
ثـــورة العـــودة في دنيـــا الظلام ....

إلى هنا، تنقطع التجربة الشعرية لكمال ناصر عن مواصلة عطائها الثورى، وتتسرب الطاقة الشعرية إلى روافد ذاتية، واستكمالا لموضوع الفكرة القومية يمكن الرجوع إلى مجموع مقالاته في فلسطين الثورة، وبإيجاز شديد يمكن القول بأنه نظر دائما إلى القضية الفلسطينية كقضية مجابهة للاستعمار والاحتلال والاقتلاع كقضية غزو للمصير العربى بأكمله، وتحد للحضارة العربية، وأنه لن يتم تحرير فلسطين إلا عبر الكفاح المسلح، وهو ما يتطلب التحرر الكامل للإرادة العربية، وبناء القوة الذاتية للأمة العربية كأساس ومنطلق لأى إرادة فعل، والتي تتم بتوحيد القوى الوطنية والتقدمية داخل كل قطر عربى، لينطلق من هناك بناء الجبهة القومية الشاملة. ويستبعد كمال ناصر الرجعية العربية من هذه الجبهة، ويشير إلى حق البرجوازية الوطنية في المشاركة في جبهة التحرير الوطنية على أن تحدد وتهيئ الدور الذى يمكنها أن تقوم به في معرك المصير.

"المسيحى المنشق"

- مشكلة فن.
- محنة أخلاق.

· لم تبق الحياة في جانبيا
· غير حقدى وغضبى وازدرائى
· مذ تعمدت بالعذاب صبيا
·ووعت مقلتى سطا الغرباء

.....

(ك.ن)

حول المفاهيم المسيحية، تنامت التجربة الشعرية لكمال ناصر، وتبلور تطوره الفني وبالتناقض مع هذه المفاهيم تطورت مواقفه الثورية.

كان كمال ناصر مسيحيا مخلصا، كما كان فلسطينيا أشد إخلاصا. ومن تضافر هذين العاملين، ومن اندماجهما بحرارة فائقة في نسيج تجربته الوجدانية، تحسس مزاجه الشمولى التناقض الأساسى بين قيم المحبة والتسامح المسيحية، وبين ما يتطلبه الواقع المر لاسترداد وطنه من قوة وعداء وبغضاء، وما الثورة الجائحة التي واجه بها كمال ناصر يسوعه الوديع الذى تقدم بقداسة إلهية للصليب فاديا العالم بدمائه، سوى تعبير عن إيمان لا يحد برسالة المسيح المسالم، وسوى تعبير عن مدى تغلغل العقيدة.. المسيحية بحنايا أعماقه، وارتباطه الوجدانى الوثيق بمبادئها، وإيمانه العميق برسالتها، هذا الإيمان القوى الذى فرض عليه فرضا أن يطرح ديانته على بساط المناقشة، وأن يغصب نفسه غصبا على قهر إيمانه متزودا في رحلة كفاحه بكلية الرؤية، ووحدة الموقف.

ولا شك أن لنشأة كمال ناصر أثرا لا ينكر في تدينه الفائق، فبالقرب من جده القس الإنجيلى نما، وقضى طفولته بين أحضانه، ومن

بين طيات ردائه الكهنوتى عرف طريقه إلى الكنيسة، وتعود التردد عليها بانتظام، ولم يتخل عن هذه العادة، ولا شك أيضا – أن أرض فلسطين المقدسة قد أكدت على حسه الدينى المرتفع، فما من نبى إلا وترك على جنباتها أثرًا من آثاره. وقبسا من نوره لا يزال فيضه يعم أرجاءها، ويملأ صدور أبنائها.

مشكلة الفن:

الحضور الدينى في شعر كمال ناصر حضور مبكر، فمنذ محاولته الأولى مع القصيدة يتبين شدة تأثره بالمسيحية، كتراث نهل خياله من ينابيعه صوره الشعرية، ففي قصيدة الغجرية الحسناء، وهى إحدى القصائد التي نظمها أثناء تلمذته بمدرسة (بيرزيت) غلاما في الثالثة عشرة من عمره، يتعانق حسه الديني مع رومانسيته المرهفة في لوحة عاطفية بالغة الجاذبية:

قدماك عاريتان يا بنـــت الهـــوى
قدما المسيـــح الناصـــرى كـــذاك
طواف أرض سار ينتعل الثـــرى
وســـبيله قـــد حـــف بالأشـــواك
فكلاكما عبســـت لـــه أيامـــه
في غمـــرة أتـــراه كـــان أخـــاك

ربما كانت الأرض المشتركة التي سار عليها كل من المسيح والغجرية الحسناء، هي التي مكنت الخيال الشعرى من دمج قطبى الصورة الأدبية ومزجها مزجا شديدا دونما عناء أو مشقة في إيجاد العلاقة الوجدانية الحميمة بين اللحظة المعاشة والموروث الدينى، ذلك لأن مقارنة هاتين اللحظتين تكشف عن قوة الحضور المسيحى للتجربة الوجدانية، من البساطة المتناهية التي ينتقل فيها من الحاضر للماضى، ومن السهولة التي يرتدى بها وجدان اللحظة الشعورية ثوب المسيحية، (يلذ لذكرياتى أن تغنى... كما غنى العذارى للمسيح)، فبين الشطر الأول والشطر الثاني صلة بعيدة كل البعد، منقطعة كل الانقطاع، فأى صلة بين غناء الذكريات وبين غناء العذارى للمسيح، أن توثب الخيال الشعرى فوق منعطفات العواطف والأحاسيس توثب يقظ، يجذب عالم القصيدة دائما حول محور شعوره الدينى القوى.

ولا يمكن اعتبار الحضور المسيحى في هذه المرحلة قد مثل مشكلة ما على صعيد الفن أو الأخلاق، فعلى مستوى المشكلة الفنية لم يكن كمال ناصر قد تهيأ لبلورة رؤية شعرية واضحة المعالم، محددة الأطر، كانت ممارسته للشعر اجتهادات شاعر مبتدىء لم يزل، مرتبطا فنيا بقوالب التقليدية والاتباعية، وإن مزج بينها وبين الاتجاهات الإبداعية، وانساق مع عواطفه المراهقة الفتية، وهى عواطف أكدت على الخصيصتين الدينية والجنسية معا كما هو مألوف.

"والصليب الذى تدلى خشـــوعا

صـــلبته الأيـــام في نهـــديك

فدعيني أفدى الصليب بروحـــي
وأقـــيم الصـــلاة في ســـاعديك"

(أنت إنسان)

إن أهمية الحضور المسيحى بالنسبة لتطوره الفني، لم يتأت إلا فيما بعد، حين بدأت في النمو قناعاته الواقعية، وتولدت رغبته المكتملة في احتواء هذه القناعات، والتعبير عنها، وهنا تتضح أهمية تأثره بالمفاهيم المسيحية، كمفاهيم رئيسية بنى عليها معطيات تجاربه الوجدانية، وأبعاد رؤيته الشعرية، من اتساق عالمه الفني وعقيدته الدينية، ويتبدى مدى تغلغل هذه العقيدة وتشعبها بأعماقه، إن عالم كمال ناصر هو عالم فلسطين، لقد طواه الطموح أن يكون الصوت المعبر عن آلام الوطن والشعب، وفلسطين كمال ناصر هي فلسطين الجريمة الكبرى التي ارتكبتها الأنظمة العربية الرجعية، والعناصر الفلسطينية الأشد تخلفا، والأعتى اجراما. وفلسطين الشاعر هي الخطيئة الأولى، التفاحة المحرمة التي مهدت لبزوغ الحياة، ومن اللحظة التي تكف فيها القصيدة عن مباشرة الواقع، يلج التأمل الفني إلى عالم الشعر مضمخا بعطر المسيحية، مشرقا بالتفاؤل بين غيوم الظلمات والخطايا، وتتداعى الرموز الشعرية متطورة ببساطة، مبتعدة عن الواقع وإن تأسست حوله وداخله، والحقائق الشعرية بدءا ليست حقائق واقعية وإنما حقائق معادلة للواقع، ومعبرة عنه ومحتوية إياه وفقا لمنظور خاص فريد ومتفرد في رؤيته للتاريخ.

وقصيدة (التفاحة المحرمة) من هذه القصائد التي يمكن اعتبارها مرحلة جديدة ومختلفة، ومنحى آخر في إعلاء صوت القضية. إنها محاولة لصنع الشعر من دم الواقع، بتناول جسد الأرض، ومن الشكل الشعرى الذى حاول كمال ناصر تطويره للخروج عن العروض الخليلى، يتضح اهتمامه الشديد بتطوير أساليبه الفنية وتطويعها لاستيعاب ذاته في الوقت نفسه الذى تستوعب فيه التاريخ، لقد ارتقى الشاغل الفني إلى مصاف مشاغله العديدة، وأصبح البحث عن إطار قادر لتقديم رؤيته الوجدانية دافعا ملحا للتجريب، وللحاق بالشاعر العربى، وبمستوى تطور القصيدة العربية التي خطت خطوات واسعة في الابتعاد عن الشكل التقليدي، ومع هذا فالتفاحة المحرمة وأن كانت ضد التقليدية، ودليلا على الرغبة الفنية المعتملة بصدره، فإنها لم تقطع الطريق لآخر الشوط، ولم تستطع أن تتجاوز أرض التقليدية لآفاق أدبية أرحب وأخصب، وظلت أسيرة العروض والقافية كما لم تستطع أن تستكمل البناء الرمزى أو أن تنميه ولم تلبث أن تسطحت وارتدت بلغتها التقريرية للواقع المباشر كما هو كائن بدلالته وإيماءاته وحقائقه:

تفاحتى كانت على دربى
تفيض بالنعمى وبالنور
وبالندى
تفاحتى دربى
تناثرت في ملعب الحب
أحبها الردى

فاغتالها الردى
ومات في أرجائها صحبى
تفاحتى دارى ومن قلبى
أطعمتها في حالك الخطب
لتخلدا
في ثورة الفدا
تفاحتى.. جريمتى، ذنبى
وملعبى المطعون في جنبى
مزقها العدا
تفاحتى شعبى تشردا
وكان لابد أن يجلدا
ليفتدى، ويفتدى
ليولدا..

من السقوط للبعث، ومن الموت للقيام، ومن الخطيئة تبدأ الحياة، وطريق الحياة هو طريق النضال والتضحية، والبطولة هي بطولة الفادى، الذى يتقبل موته لنصرة الكل، فداء للجميع، لخلاص المجتمع، والموت ضريبة واجبة السداد، يدفعها الشهداء الآلهة، والشهادة طريق يسوع الرب لخلاص البشرية، إن جدلية الفداء حقيقة سيكولوجية حية تمارسها المسيحية منذ قيامها، (ضريبة الربيع، ضريبة البقاء، تدفعها الحياة في سخاء، في موسم الشتاء، في رحلة البقاء والفناء) أن جدلية الفداء: الخطيئة — الفادى — الحياة ناموس طبيعى خالد، يحكم الكل، ويلزم الجميع.

"من سار في درب العلى
لابد أن يموت
لابد أن يموت كل يوم
في موكب الإباء والشمم
لأننا في موتنا نستلهم الحياة
نحقق الحياة
ونخلق الحياة في العدم
ضريبة الوجود أن نعمر الوجود
وأن نعمد الوجود
بنشوة الألم..

(رسالة شهيد)

أما صورة المخلص، فإن ملامحها تشبه إجمالا ملامح الأنبياء، بل وأغمض، فالزعيم أو الفادى كائن غريب لا يمت للأرض ولا ينبثق من صفوف البشر، فلم تنجبه امرأة ورجل، وإنما يفد من السماء بصفة إلهية، تعطفا على آلام الرعايا، ورحمة تنشر أجنحتها على أشقياء الروح:

نجمه كان في النجـــوم البعيـــدة
فهفـــت روحه لدنيـــا جديـــــده
وظفرنـــا بـــه وكنـــا إليـــه
مثلما يشتهـــى الثـــرى عنقـــوده

جذبتـــه آلامنـــا فاحتواهـــا
جمرات علـــى عـــذاب العقيـــده
فشربنا مـــن خمرهـــا وانطلقنـــا
كالأمـــانى للثـــورة المنشـــوده

والرسالة التي يهبط بها هذا الفادى رسالة لا تتعلق بمأساة الناس الجياع العراة، أو بأوضاعهم الاجتماعية، أن كل ما يتبقى للثورة المنشودة رقعة تمتد من النفى (لم تكن ثورة الجياع ولا الظمأى ولا ثورة العراة الحقودة). وتترك مجالا متسعا للاستفهام، أما صفة الحقودة التي تنعت ثورة العراة، فتضفى مسحة مسيحية إلى هذا الزعيم الغامض المنبت، كما أنها تموضع هذه الثورة فكريا وطبقيا، وعلاقة الزعيم بجماهيره علاقة تستمد أصولها من الأسطورة، فنجد الحب الذى يغدقه بسخاء على أشقياء الروح، وعلاقة التواكل والاتكال والانصياع من جانبهم، والتفاعل بين الزعيم والشعب تفاعل غامض وسحرى، ففي بوتقة حب الجماهير لهذا الزعيم، تنصهر الرغبة في (قتله)، لاستعادته ودمجه في المصير الأرضى والإنساني، والقتل في التجربة الشعرية متمم لشخصية الزعيم المهيبة والمهابة، أن فعل القتل لازم لتحول الإله إلى قائد، الخالد إلى البشرى، المطلق إلى المحدود، ولا تتأكد زعامته إلا عن طريق الصلب، وبتدمير الألوهية يصبح قوة خارقة في صفوف شعبه، قوة تدفع إلى سبيل إرتقاء مبهم المسالك، غير واضح الأهداف، فجماهير كمال ناصر في هذه المرحلة ظامئة إلى

شيء ما، مسحوقة داخل واقعها، تتطلع إلى من ينقذها من الوهدة التي تردت لقاعها، وإذا كانت لم تتعرف بعد إلى نفسها، ولم تهتد إلى مواطن القوة، والثورة الكامنة في توحدها، فإن ظمأها تعبير عن فقدان الإيمان في الزعامات والقيادات التي منيت بها، والتي أعمتها المصالح فجرفها التيار للمهادنة والخيانة والعمالة، كما أن الغربة التي تعانيها باتجاه ذاتها، وعدم الثقة في إمكانياتها، وضياع كيانها تاريخيا يجذبها للتعلق بالفادى الغريب الوافد من النجوم، غير الطامع في مصلحة أو سيطرة، مأخوذة بمثاليته ومثله، وبواقع من شعورها بالحاجة إلى البشرى والواقعى تندفع لقتله، محاولة منها لتملكه وتذويبه في صفوفها، حيث لا تملك أجنحة الثقة اللازمة للتحليق والإرتقاء إلى مصاف ملكوته. أنها تعيش محنة نفسية قاسية، وتعانى من ألم جوع هائل لتاريخ حر ومجيد، فتزحف إلى عالم التجربة الوجدانية تحت ألوية الرومانتيكية والصور الدامية الموشاة بألوان الدراما المسيحية:

كـــم جلســـنا حولـــه نتملـــى
روحه البكـــر فكـــرة وقصـــيده
وســـكبنا جراحـــه في يديـــه
فاســـتحالت طلائعـــا معقـــوده
فحملنـــاه للنجـــوم فكـــادت
تدعيـــه تـــود أن تســـتعيده
فهى أحنـــى عليه منـــا وأولـــى
تتحفـــى بـــه وتـــدرى خلـــوده

ربمـــا.. ربمـــا نكـــون قتلنـــاه
لنـــذكى وجـــوده ونعيـــده
ربمـــا.. ربمـــا إذا مـــا نحرنـــاه
فككنـــا إســـاره وقيـــوده
لم يكن طارئا على المجـد لكـن
ســرق المجـد عمـره وجهـوده
لم يكـــن طامعـــا ولا أعلقتـــه
برؤى الحكـم شـهود عربيـده

(الثائر القائد)

لم تمهل حركة الواقع كمال ناصر للاستمرار في تخيلاته الوردية عن الزعيم الفادى المخلص، لقد تجاوب كمال ناصر الشاعر وجدانيا مع تطور الواقع، ولم يتخلف عن ركب التاريخ الصاعد بتوكيده على الشخصية الفلسطينية، ودورها الطليعى، ومعطيات التجربة الشعرية لم تتخاذل عن اللحاق بركب الثورة، ولم تسقط من عربة التاريخ على قارعة التخلف، وتتطور صور الزعيم معزوفة على أوتار قيثار القضية بالأنغام المسيحية ذاتها، وبالحس الدينى نفسه، الذى استمر يمد التجربة الشعرية بالرموز والدلالات والأخيلة، وأن كان كمال ناصر قد أخصبها بالمضامين والمعطيات الواقعية، منسقا بين عناصر الشكل والمضمون في وحدة القصيدة، ولا شك أن سمات الزعيم قد أتى عليها التغير نفسه

الذى أتى على شكل الكفاح الفلسطيني وقياداته الاقطاعية والبرجوازية، وهى قيادات تاريخيا انفصلت عن القاعدة الجماهيرية، وعن أمانيها، كما سلف، ولا نبالغ في القول: بأن رؤية كمال ناصر جاهدت طويلا للتخلص من قبضة التصورات الطبقية هذه حول مسالك النضال، وهى التصورات التي تلبدت بغيومها آفاق قصائده وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بالجماهير ودورها الكفاحى، لقد أكد كمال ناصر على دور الفرد وأهميته المطلقة في صنع التاريخ، وتعاظم الدور البطولى قاطعا الروابط الوثيقة التي تخضع هذا الدور للحياة الواقعية:

ثائرا يفـرض المحبـة في النـاس
ويـدعو للخـير والتهـذيبِ
لا يبالى بالشوك يـدمى خطـاه
في مجـال الكفـاح والترغيـب
صمدت نفسه الأبية للآ ثام
في هيكـل الوجـود الرهيـب
لا يبالى أصغى له الشعب لمـا
أن دعـاه أم هـام غير مجيـب
حسبه أن يفيض بالأمل العـذب
ويحيى في الناس ميـت القلـوب

(صرخة الميلاد)

وبالتفاعل مع الأحداث ووعى التاريخ، بدأت أوثان الفكر والتصورات البرجوازية تتحطم، وأسلمت حركة الواقع خطاه إلى بداية الطريق للحقيقة، وإن لم يقطعه للنهاية، لقد اتجه عالم الشعر صوب الاتجاه الصحيح، وسقطت أوهام البطولة الفردية الخارقة، وتحطم الارستقراطى، واجتاح الإنسان العادى بجيوشه مملكة الأدب، واستحوذت بطولاته على مدائن الإبداع، وأكدت الرؤية الفلسطينية في شعر كمال ناصر على الفدائى البطل المنحدر من سلالة شعبية وصلب كادح، مخترقا الحواجز الميتافيزيقية التي قبرته في التاريخ، واحتجزته عن القصيدة، إلى هذا البطل الفدائى بدأت رؤية كمال ناصر تتجه (إلى الذين برعموا في مقلة الجراح، وأورقوا على رؤى النضال والكفاح، وصلبوا مصيرهم في خاطر السلاح، واستشهدوا ليولدوا في ثورة الصباح). بتطور مضمون القصيدة لم يتطور البناء الرمزى بنفس الدرجة، ولم يتخلص من دراما المسيحية، فالبطل الجديد يرتدى حلة البطل المخلوع الموشاة بجدلية الفداء، ولم تستطع الرؤية الوجدانية بحقائقها الجديدة اقتلاع جذورها من الحس الدينى، وبالرغم من إصرار الخيال الشعرى على استيعاب النصرانية واستنبات صوره من ألوانها، فلقد استطاع بالتخلق حول محاورها أن يتخطى الحياة الفعلية وجدران التعامل المباشر مع الأحداث إلى حيوية العوالم الفنية إلى حد بعيد، وأن يصوغ من لبنات الحضور المسيحى لوحة جديدة عن البطل المعاصر:

آلامنـــا والشعـــب يحملها
عذراء تنـــزف في سما الخطب
نبضـــت بدنيـــا الغدر دامية
تحدو بنـــا في موكـــب العرب
هـــذى طـــلائعهـــا مجنحـــة
تختـــال كالإيمـــان في الدرب
وتمـــوج بالتاريـــخ تدفعـــه
فيهـــم من ركـــب إلى ركب
النـــور فـــوق جبينـــه حلم
أرقـــت عليـــه دسائس الغرب
يا ســـارق الأحـــلام في بلدى
آمنـــت بـــعـــد الله بالشعب

(إيمان)

محنة أخلاق:

من لحظة بروز الشخصية الفلسطينية على ساحة الواقع السياسى والكفاحى، بدأ المسيح المستريح بأعماق كمال ناصر يتململ، وقلقل الزلزال كثيرا من القيم المسترخية تحت شمس التوافق النفسى، ودهم شتاء عاصف القناعات العقائدية مقتلعا كثيرا من مفاهيمه الوجدانية مبشرا بربيع أخلاقى جديد.

فلم يعد ممكنا ببزوغ الفدائى الفلسطيني على أرض الواقع والأدب الاستنامة إلى أخلاق المحبة المسيحية، وأصبح من المستحيل مجاراة المتغيرات النضالية والاحتفاظ في الوقت نفسه بأدنى درجة من درجات التوافق مع النفس، وبين الواقع السياسي والاجتماعى والواقع النفسى توتر كمال ناصر مدفوعا مع التيار الصاعد إلى آفاق المستقبل منجذبا بواقعه النفسى للتخلف عن اللحاق بهذا التيار.

ولم يكن من خيار آخر أمامه، إدارة الظهر للحركة التقدمية ورفضها من موقع دينى متزمت، أو المجاهدة لإعادة تركيب بنائه الأخلاقى بطريقة ما وفق المتغيرات الجديدة على ساحة النضال.

لقد استطاع مسيح كمال ناصر أن يعيش بأمان وأن ينعم بالهدوء خلال المراحل السابقة من عمر القضية الفلسطينية، ففي السنوات الأولى وحتى النكبة لم تكن قامة المسيح تزيد عن قامة كمال ناصر بطبيعة الحال، فكان مسيحا صبيانيا أرق صليبه على فخامة النهود الشهية دون معاناة حقيقية للآلام المتوالية على مسرح التراجيديا الفلسطينية، ولم تظهر في الفصول الأولى أدنى حاجة نفسية للتعرض لموقف هذا المسيح الآمن في حبوره الصامت، وحملت سنوات النكبة وحتى الستينيات نذر الخطر التي تعرض لها استقراره المطمئن فيما بعد، إلا أن هذه النذر بهباتها الخفيفة ما كانت لتزعه من مكمنه الحصين، فجميع المسائل تجرى بالتنسيق – على شيء من التعسف أو المغالاة – مع الواقع المرحلى للقضية وللموقف الفلسطيني، ولقد سيق مسيح كمال ناصر للصلب أكثر من مرة على أيدى (بيلاطس)

الجديد، الذى أتقنت تمثيل دوره إتقانا فائقا الزعامات الفلسطينية الرجعية بأصولها الطبقية الممالئة للرأسمالية العالمية، كما شاركها هذا الدور الأنظمة العربية العميلة، وعلى الرغم من تنبه كمال ناصر لهذه الأخطار، بل واعتقاله شخصيا بمعتقل باير الصحراوى بأوامر الملك عبد الله، إلا أن مسيح كمال ناصر لم يتزود بالأيديولوجية الثورية والتي بإمكانها أن تضع أنامله على مواطن الداء، وترشد قدميه العاريتين لطريق الصواب، وظلت آماله متعلقة بالأنظمة العربية نفسها، والتي لم تكف عن التواطؤ على سلامته بالاتفاقيات السرية والمعلنة مع يهوذا العصرى الصهيوني والأمريكى. لم يتعظ مسيح كمال ناصر من التاريخ الاتعاظ الكفيل بترشيده، وبلوغه سنوات الرشد، ولم تنزعه استراتيجية العمل من داخل الأنظمة العربية خارج إطار رؤيته المقننة بمشاعر المحبة والسلام، بل إن أفكاره الوحدوية كانت أقرب لتدعيم عاطفياته المسالمة والتوحد مع مشاعره الدينية، في الوقت الذى لم يغب عن بصره لحظة ما يجرى على المسرح وما يعد داخل الكواليس، وتنساق هذه المتناقضات بهدوء غريب لعالم القصيدة، وتمتزج الأصوات المتنافرة في نغمة واحدة:

يا رؤى الخير حاذرى أن تغـــيبى
واصمدى للأذى بدنيا الـــذنوب
إن للحـــب دمعة ما توانـــت
تتهاوى بالظهر فـــوق الصـــليب
سكبتها جراح عيسى فسالـــت
بضياء الغفـــران بـــين القلـــوب

يتعرض مسيح كمال ناصر لأول بادرة للثورة في قصيدة (لست منى يا غريب فاحمل صليبك)، ولكنه يعرف كيف يطأطئ هامته للريح لتمر، ولقد تم استدعاء المسيح على وجه السرعة لفض التناقض الصعب الذى واجهه، والذى لم يكن من الهين إغضاء الطرف عنه، أو التقليل من شأنه، وهنا لابد أن نعترف لمسيح كمال ناصر بالذكاء، لما أبداه من بساطة متناهية في حل معضلة القصيدة لصالحه، مستمرئا استقراره النفسى، متمسكا بقيمه.

وقد لا يكون من الصواب مقارنة عالم كمال ناصر بعالم شاعر آخر كبرهان الدين العبوشى، لسان حال جمعية الشبان المسلمين (١٩٣٦)، ففلسطين العبوشى فلسطين صليبية، أما المواجهة بين فلسطين وبين الغرب في عالم كمال ناصر، فهى مواجهة لغزوة امبريالية استيطانية، ومن الوهلة الأولى يكتشف كمال ناصر طبيعة الحركة العدوانية، ومخططها الشرس للاحتلال والاستيطان، ومراميها الاستعمارية، والعلاقة القائمة بين الصهيونية والإمبريالية العالمية، ومن حدود إدراكه لهذه الطبيعة، ووعيه بالأحداث، ومعاناة شعبه، من جراء تنفيذ المخطط الاستعمارى يقتحم أمنه المسيحى التناقض الأول بين طبيعة البلاد الغربية الاستعمارية، وبين كونها بلادا مسيحية، إن عدم توافق الغرب الاستعمارى مع أبسط المبادئ الإنسانية للديانة المسيحية يعتبر الشرخ الأول لتصوراته، فيناشد المسيح أن يجد تعليلا له (أنت إن كنت سيدى ومسيحى.. فأنبذ الغرب وانتصر للجريح)، إن فكرة الشر من الأفكار

القريبة إلى الذهن، وفكرة بالإمكان تقبلها في الحياة الإنسانية، إلا إذا صدرت عن المسيحية، فإنها هنا تثير الدهشة والاستغراب، والمسيح نفسه تعرض للشر البشرى (أنت بكر العذاب عند اليهود) وتقبله بمزيد من الإيمان والصفح، ولم تململ وحدة أمنه الحراب اليهودية المغمودة في جنباته، ورياح الشر التي أصبحت تهب على المنطقة، بدأت تخوخه من الداخل، وتفرغه من المبادئ التي نادى بها، واستبسل في التبشير والدعوة لها، ولم يكن هينا عليه الصمت الغافر الصافح، فلقد (روعته شريعة للنصارى.. مسخوها فأضحت استعمارا) ويصمد مسيح كمال ناصر في هذه المرحلة وأن اهتزت قناعاته، ويرفض الغرب بمنطق دينى، بمنطق المسيحية، وينقذ رؤية الشاعر من التناقض الأول إلى حين..

لست منى يا غرب فاحمل صليبك
راعفا بالـــدماء واتبـــع ربيبـــك
لست منى فانزع شعار صـــلاتى
حسبى العمر قد حملـــت ذنوبـــك
لست مـــنى يا غـــرب أن إلهى
رحمة عن دسائـــس الشـــر نـــاه
لا تبـــاه على الأذى لا تباهـــى
فضحايـــا الإجـــرام بيض الجبـــاه
إن مهدى في الشرق إن ضريحى
لم يـــزل قائما بهـــذى السفـــوح

كرمته للعرب بـــيض الأيـــادى
وحمتـــه مـــن صـــولة المســـتبيح
ذلك الشرق حبه في فـــؤادى
ووفـــائى يظـــل رهـــن بـــلادى
ودمـــائى علـــى يـــد الجـــلاد
سوف تبقى على الزمـــان تنـــادى
خطموا دولة الأســـى واليهـــود
(لست منى يا غرب فاحمل صليبك)

لم يخلد الإيمان إلى الاستقرار، وتجاذبت كمال ناصر التناقضات، فداوى جراحه، وعالج التصدعات في بنيانه الأخلاقى المتداعى للانهيار باقتدار وصمود صعب، محاولا الاحتفاظ بإنسانية لا يمكن الاحتفاظ بها في حدود الطاقة الإنسانية المسئولة، وتوالت الأحداث وتصاعدت دافعة به للتملص من إهاب المسيحية، ليطلق قوى الأحقاد المكبوتة والبغضاء الحبيسة، ولم تمهله المعاناة ليهدأ وليمسح عن قلبه قذى الشر، وامتدت التصدعات في جدران قيمه المكينة البناء، واحتدم الصراع رهيبا، وانتقل إلى مرحلة التمرد على نفسه وعلى مبادئه الأخلاقية، ورفض هذه المبادئ تحسسا لعدم تناسبها مع الواقع المؤسف المعاش، كان الستار يؤذن بالانسدال على هذه المرحلة، وكمال ناصر متمرد يتردد في الانسياق مع نفسه إلى النهاية، وازدوج عالمه الوجدانى، منساقا مع قيم القوة والعداء، متمسكا على غير اقتناع بأخلاق الطيبة والصفح والغفران.

وشخصية المسيح في نهاية هذه المرحلة الفنية تتضاءل وتتطاول، وتضعف وتشتد، إلا أنها في جميع الأحوال أقصر قامة من صوت فلسطين الجريحة، التي بدأت تلعق جراحها وتصحو مستأسدة، والمسيح الذى تقدم إليه كمال ناصر في (لست منى يا غرب فاحمل صليبك) في موقع قوة، يتقدم إليه هذه المرة في موطنه الضعيف. إن لهجة التوسل التي ناجاه بها (أنت أن كنت سيدى ومسيحى) تتحول إلى أسلوب أمر (عيسى بن مريم قد عرفتك هادئا.. فاغضب ولو في ليلة الميلاد)، لقد تحول إلى شخصية مغلوبة على أمرها، لا تصلح بضاعته للتداول في عالم لم يصبح به شيء مقدس، حتى كرامة الإنسان وأمنه، إن حالة القدسية المضيئة تخفت أنوارها، ويتروى يسوع الرب طى النسيان، ولا تستعيده في قصيدة (عيسى بن مريم) غير نبضة وحيدة من الرهبة، نبضة من إيمان أفلت شمسه غاربة في بحر الصراع البربرى.

يا أين.. أين فمى الذى أوقفتــه
لحنا علــى التســبيح والإنشــاد
ما لى تمزقــت المعــانــى حــرة
وتحطمــت في خــاطر الأعــواد
ما للرؤى العمياء تجــرح مقلتى
تنتــابنى في صــحوتى ورقــادى
تجرى دما في مهجتى وتعــيش في
روحى وتسرى عنــوة لفــؤادى

فتموت أغنية المسيح على فمـــى
ألما ويخرس كـــل طـــير شـــادى

وتلوح لى هذى الدنى أســـطورة
للبـــؤس تهـــزم غمـــرة الأعيـــاد

فأرى بها شعبى الجريح مشـــردا
فوق الشعاب يلـــج في الأصـــفاد

يا ليلة الميلاد قولـــى للـــذى
أنزلتـــــه للـــــوعظ والإرشـــــاد

هذى دماؤك لم تزل مسفوحـــة
فوق الصليـــب تصيـــح بالجـــلاد

أكليلك الفخم الجميل تناثـــرت
أشـــواكه في أمـــتى وبـــلادى

فحنا عليـــه المؤمنـــون وقبلـــت
آمالـــه آمـــال بيـــت الضـــاد

وسعى إليه الغاصبـــون فشيدوا
صـــرحا علـــى الآلام والأكبـــاد

والإنكليز بنوك ذلـــت أمـــة
قامـــت على الطغيـــان والأحقاد

والإنكليز بنـــوك كـــل ذميمـــة
منهم وكـــل أذى وكـــل فســـاد

فاسمع جراح المهد تهتف نقمـــة
وا ضـــيعة الأولاد والأحفـــاد
عيسى بن مريم قد عرفتك هادئا
فاغضب ولـــو في ليلـــة المـــيلاد
وأشهد مآسى الغرب كل جريمة
قامت هنا باسم المســيح الفــادى
إن كنت منهم يا ابن مريم فلتعد
لربوعهم لا كنت فينـــا الهـــادى
أمـــا المحبـــة فلتحـــول غضـــبة
هوجاء تذكى الحقد في الأغمـــاد
أما الحنان فسوف نمشـــى باسمه
ثـــأرا لتعلـــوا رايـــة الأمجـــاد
يا صائد الأسماك قـــد أودت بنا
بـــين الأنـــام شـــريعة الصـــياد

(عيسى بن مريم)

لم يستمر تردد كمال ناصر طويلا في حسم مشكلته الخاصة مع الأخلاق المسيحية. ولم تلبث المتغيرات الواقعية على ساحة القضية الفلسطينية أن دفعته ليضع حدا باترا لتذبذبه الأخلاقى، تحت ضغوط من تشوفاته الوجدانية للتوحد مع الموقف، ففي نهاية المطاف يحمل كمال ناصر أخلاق المواساة ليضعها خارج إطار تجربته الشعرية بدون أسف عميق،

ويلملم مسيحه مشاعره الإنسانية الرقيقة ونبله النفسى تاركا شعب المخيمات يتأهب للنضال المسلح، مؤكدا على شخصيته الفلسطينية نابذا توهماته السابقة، متعرفا على البندقية في الآن نفسه.

ولم يعد بمقدور كمال ناصر – كما استطاع من قبل – لى ذراع الواقع ليخضعه لقبضة الأخلاق، فمثل هذه الاتجاهات المثالية لم يعد بإمكانها رأب الصدع البين بين مقتنعاته بالنضال المسلح كطريق وحيد لتحرير فلسطين ولاستعادة الوطن السليب، وبين مكوناته الأخلاقية المتمكنة من عواطفه، لقد تجاوب كمال ناصر مع رؤيا البرجوازية الصغيرة التي أكدت على العمل الفدائى، وشجب تجاوبه السياسى عقيدته الدينية، وانتزعه انتزاعا من براثنها، لينفتح على تيار الواقع، ويلتحم بحركة التاريخ.

تتخطى (أنشودة الحقد) حدود التوافق النفسى، وتكشف بجرأة عن التناقضات الأخلاقية الحادة التي يعانى منها مر المعاناة، وتفد هذه التناقضات إلى عالم القصيدة محمولة على أصوات ثلاثة تمثل أطراف الصراع الضارى الدائر بين نسر وبلبل وشاعر، قيم الثورة وقيم الطيبة والمسالمة، والوعى المهموم بعملية الاختيار الصعب.

ومن البديهى أن الصوت الأعلى قوة في الإقناع، هو صوت القوة والعداء والاستبسال، صوت النسر، (إنما الكون قوة وانطلاق وكبرياء، إنما الحب نزعة حاكها الجبن والولاء، أسعد الناس حاقد يطعم الثأر ما يشاء). أما صوت البلبل فلا يرقى لمصاف الإقناع، كما أن حججه أقل

تماسكا وعقلانية، فلا تعدو المناشدة العاطفية اللائمة العاتبة، (كيف تنسى سر القداسة في الكون وتنسى شريعة الغفران، إن معنى الوجود صفح تهادى في حنايا الإنجيل والقرآن).

ولما كانت بواعث الإدراك اجتماعية، فإن صوت الشاعر يفد كمأساة اجتماعية، ترتبت عليها مشكلة أخلاق فردية، خاصة بالشاعر، وبتقهقره الأخلاقي عن متطلبات اللحظة الراهنة، (أنا جيل مضيع مزقتني شهوة الغدر واستباحت دمائي، أنا جيل مضيع وجهاد طعنته الأقدار في أحشائي، أنا دار وجنة ورياض مطرقات بالذل والإغضاء، ما على الحقد لو تسمر في روحي ولبى ضغائني واشتهائي).

فالبواعث الحقيقة للتجربة الشعرية تنفجر من أرض الواقع، بنزعة اجتماعية مرتفعة، توجه عالم القصيدة من مطلعها بإسناد فعل أمر ليس من طبيعة مسيخية إلى الجموع الثائرة: (احقدي يا جموع) فعلى أعتاب المقاومة تبدأ القيم الجديدة بالتخلق (ليمت في القلوب، كل معنى نبيل، نحن جيل غضوب لم يهن للدخيل). لقد نمت خبرات كمال ناصر في عالم غير إنساني، وتحطمت بالتجريب معتقداته وقيمه النبيلة (لم تبق الحياة في جانبيا.. غير حقدي وغضبتي وازدرائي، منذ تعمدت بالعذاب صبيا.. ووعت مقلتي خطى الغرباء)، ومن واقع الخبرة المؤلمة بمراحل القضية الفلسطينية تشكلت قناعاته الجديدة بصفة مؤكدة: (يا نبي الغفران لا الصفح يجدي في مجال العلى ولا الحب يجدي) لقد رفض قيم الطيبة من موقع ثوري قريب من مرحلة النضال المسلح، ومتعلق بها، أنه

انتشال للنفس من وهدة السقوط، وبحث عن دين جديد يسمو بالذات إلى مستوى الواقع، ويوحدها بالصفوف، ويضفى عليها التوافق والانسجام.

قد حبوناك بالضـــغينة والحقـــد
فعلـــق بجانحيـــك السلاحـــــا.

إن إيمانـــك الصـــليب شـــظايا
فجرت في الفق المريض صلاحـــا.

ربما.. ربمـــا يناصـــرك الحقـــد
فتمضى الرمـــاح تلقى الرماحـــا.

يا نبى الآلام في ثـــورة الحـــقـــد
خلقنـــا إليـــك دينـــا مباحـــا.

من شـــرايينه يســـيل دم الثـــأر
ويـــــزو عواصـــــفا ورياحـــــا.

لا ســـــلام وإنمـــا خطـــوات
في طريق العلى تهـــز الصفاحـــا.

لا ســـــلام ولا حنـــان ذليـــل
يتمنى الماضـــى ويهفـــو نواحـــا.

لا سلام وخنجر الشـــر يدمـــى
مواطنا راعش الذرا مستباحـــا

(أنشودة الحقد)

لقد رفض كمال ناصر الأخلاق المسيحية من موقع أكثر تقدما، ولكن من المغالاة الادعاء بأنه انصرف عن الموروث الديني، أو أن لغته كفت عن الاتصال به، وعلى الرغم من التطور العظيم الذى مس جوهر وطبيعة رؤيته الوجدانية بجنوحها للواقعى، فإن محنة الأخلاق المسيحية التي عانت منها التجربة أيما معاناة، ترجع في الحقيقة إلى موقفه الفكرى من مفهوم العنف الثورى، فلقد أوقعه تصوره للصورة كقوة شر تنبعث من احتدام الأحقاد الخبيثة والشهوات الدنيئة والمستويات البشرية المتدنية، في أحابيل التناقض المرير مع عقيدته الدينية، ولقد كان بحاجة ماسة لنظرية ثورية تقدمية، تؤصل العنف الثورى كما هو في الحقيقة إنسانيا ومطلبا خيرا مشروعا لإرادة الحق المتعطشة للعدالة وللحرية، لتعيد الانسجام بينه وبين قيم الطيبة والأخلاق المسيحية، وتنتشله من وهدة التمزق النفسى والانشقاق الروحى التي تردى لقاعها عالمه الوجدانى.

"غربة الملتزم"

- سنوات الإحباط.
- مسألة الارتباطات.
- الفلسطيني التائه
..والفردوس المفقود.
- تناقضات كونية.

- لو تستجيب الأرض ثانية.
- يخضر في عمرى لها نبت-

(كـن)

يتمركز الخط الشعورى للتجربة الوجدانية لكمال ناصر – في سنواته الأخيرة – حول الذات، ويتقلص اهتمام التأمل بالعالم الخارجي، مرتدا بحدة لدخيلة متشككة في جدوى الحياة الإنسانية، أما مصطلحات الغربة التي تداولتها تجارب المراحل السابقة، كمقولة مباشرة للواقع الفلسطيني السياسي، وكتعبير عن تشرد الفلسطيني المنبوذ الضائع في بلاد المنفى لاجئا، وكصدى للحس الجمعى وللنزعة الاجتماعية التي استغرقت موضوع القصيدة الفلسطينية بمعاينتها الشعورية لمجريات الأحداث اليومية المستقلة في وجودها عن وجود الشاعر كذات، فلقد تحولت إلى مصطلحات وجودية تعكس طغيان الحس الذاتي وارتفاعه، واهتمامه بالمصير الفردى وسيطرته التامة على أبعاد التأمل الوجدانى، وموضوع التناول الفني، وما تثيره هذه التجارب أقرب إلى أن يسمى بمشاكل عدم الانتماء.

وهنا تتضح صعوبة التسليم بهذه الأحكام، دون الكثير من التساؤلات، فلقد أثبت كمال ناصر إلى تاريخ استشهاده انتماءه كاملا لحركة المقاومة الفلسطينية، وإلى التيار الاجتماعى النشط، الذى لم

يتنصل من قضيته، ولم يركن لهدوء، ولم يرضخ لاعتبارات الأمر الواقع بل إن استشهاد كمال ناصر في حد ذاته دليل لا يقبل الدحض على ما جره عليه موقفه الشريف كمناضل في سبيل قضايا بلده، هذا الموقف الذى ازداد نضجا على مر الأيام، كما ازداد ثورية وأهمية.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مشكلة ذات شقين متناقضين، يمثل كل منها وجها لكمال ناصر متباينا أشد التباين، وقد تنبه كمال ناصر لهذا الانقسام، وعانى منه فزعا متألما:

اللعنة التي أدركتها تخيفني ترهبني.
وأنني أقسمت... وانقسمت والتويت.
وأقلع الصباح في بحيرة الراح يمتصني يعبني.
وأمست الرياح لا تناوىء الرياح.
وانطفأ المصباح.
لم يبق فيه زيت، لم يبق فيه زيت.
ماذا أنا جنيت .
رباه ما جنيت .
مستنقعي يغرق بي يشربني وقبضتي تضربني.
أود أن أكون مثلما أتيت .. كما أتيت .

(رسالة من دوفيل).

ولكن لنحدد أولا أن المرحلة الفنية الأخيرة ما هي إلا حلقة واحدة من تاريخ تطوره الفني، ومن غير المعقول أن تكون هذه الحلقة منفصلة

عن غيرها من الحلقات، كما أنه من غير المعقول أيضا ألا تتصل اتصالا وثيقا بالمناخ العام الشخصى والسياسى، وبموقفه من حركة الواقع الفلسطيني وإفرازاته الشعورية، إذا كنا بصدد توثيق مشاعر كمال ناصر والوقوف على خباياها وخفاياها.. فالذات المبدعة لا تعيش منفصلة عن الواقع لتقتات بنفسها. والعمل الإبداعى الخلاق عمل سريع التأثر سريع الاستجابة في طرح وجدان اللحظة العامة، من خلال تكشفها في مرآة الآنية الخاصة، عن طريق استجلاء خفايا الحادث لا في تشيئه خارج الذات وإنما – أيضا – في تخلقه داخل الذات كتيارات نفسية وانطباعات فردية شديدة الخصوصية موازية لسيول الأحداث الخارجية، والتأمل الفني في هذه الحالة يتخذ من الذات موضوعا لاستقطاب الواقع كمشكلة ذاتية يجمع خيوطها بأمانة ويعرضها بصدق....

كما أن هذه المرحلة كظاهرة أدبية ملفتة للنظر ليست منعزلة عن التاريخ الأدبى للقصيدة العربية واتجاهاتها.

إلى جانب أن معطيات التجارب الشعرية معطيات متحركة متطورة بالرغم مما يذهب إليه البعض بأن الرؤية الشعرية رؤية متكاملة ذات أطر ثابتة ومصطلحات ذات دلالات وإيحاءات خاصة. فهذه الرؤية إذا صدق تناولها خلال مرحلة معينة من حياة الشاعر أو من خلال ديوان أو عمل فنى معين... فمن الإخلال بالصدق تعميم هذه الرؤية دون مراعاة عوامل التغير التي تلحق بالشاعر كذات واعية، لا تكف عن المعرفة واستكشاف

آفاق أرحب ومناطق مجهولة لحقائق جديدة، مما يمس بصفة دائمة ومستمرة جوهر تصوراته الكونية والاجتماعية.

ولم تكن ظاهرة التشاؤم أو ظاهرة الحزن في الشعر العربي المعاصر قاصرة على كمال ناصر خلال هذه الفترة، فهى في الحقيقة ظاهرة وجدت صدى واسعا واستجابة عريضة من كثيرين من شعراء العربية في غضون الأعوام من ١٩٦٤ إلى مرحلة ما بعد النكسة، وهى مرحلة تركت بصمتها على الحياة الأدبية لأسباب عديدة، ويبرر صلاح عبد الصبور ذلك بأن الشعراء والفنران هم أول من يستشعر الخطر المحيق بالسفينة. وينبه إليه.

ولنسلم بأن القصيدة العربية تحت ظروف موضوعية خاصة بالواقع العربى قد طرحت تساؤلها عن المصير الإنساني، وألحت على هذا السؤال، وترجمته بالمصطلح الوجودى متأثرة إلى مدى بعيد بالثقافة الغربية.

ولكن، يبدو أن هذه الحقائق على أهميتها ليست التبرير الوحيد الذى بإمكانه أن يلقى الضوء الكافى على تجارب الغربة في شعر كمال ناصر لتعامله مع واقع، مختلف نوعيا إلى حد ما عن واقع الشاعر العربى، فالقضية الفلسطينية بالنسبة له كشاعر فلسطيني قضية متجددة الحيوية على كل المستويات المحيطة به سياسيا واجتماعيا وحياتيا. وإن كانت في الوقت نفسه من المشاكل الرئيسية والقضايا التي تشغل الشعراء كافة على الساحة العربية، إلا أن إلحاحها على الشاعر العربى ليس بحدة المعاناة

نفسها التي يستشعرها الفلسطيني الطريد، الضائع فوق الكرة الأرضية بلا مأوى. ومن المنطقي إذن أن تفرض التزاما قاسيا على الشاعر لا تلزم بقسوته أي من شعراء العربية ويمس هذا الالتزام القصيدة شكلا ومضمونا، فلا مصوغ إذن للتعلل بالصياغة الفنية والشكل الفني. وهكذا نجد أنفسنا من جديد نجد في البحث حول تفسير تجربة الغربة كتجربة تأمل للذات في علاقتها مع الوجود كمعطى أولى لشاعر في قمة الانتماء والالتزام.

إن معاناة كمال ناصر النفسية، هي بلا شك معاناة تنبعث من المعاناة العامة وفقا لقناعاته الأساسية كفلسطيني أولا، وكثورى ثانيا، وهي الإطار العام الذى يضم بين إهابه تجاربه الشعرية كافة، على امتداد أعماله منذ تعرف على القلم. وكل تطور في موضوع القصيدة ومناخها ليس إلا تطورا داخل هذا الإطار، كتغنى بالوضعية الفلسطينية، وتمشى مع مراحلها المختلفة، فإلى أي مدى يمكن وضع تجاربه الأخيرة داخل هذا الإطار؟ وبأية كيفية يمكن التعرف على هذه الوضعية في صوته الذاتي المرتفع النبرة؟ وما هي أهم قناعاته السياسية العامة التي أملت عليه ودفعته إلى انتقاء هذه التجارب؟ والتوقف بتأمله الشعرى عند هذه اللحظات الشعورية؟ وانتشالها من هلامية الشعور إلى نسق المعنى... وما هي ظروف الانتقاء الفني الخاصة به كإنسان؟ وهى ظروف بالضرورة لها سلطة الفرض والتحكم والإملاء كدوافع نفسية لا سبيل إلى مقاومتها أو التمرد عليها...

سنوات الإحباط:

من واقع كتاباته الصحفية في سنواته الأخيرة، يمكن أن نستشف صورة الواقع السياسي، التي تعتبر أحد العوامل الأساسية التي تدخلت في بناء رؤيته الوجدانية، لقد امتدت خريطة ردود أفعاله الشعورية بامتداد خريطة الوطن العربي، ليس لأنه ينتمي بواقع تفكيره القومي إلى الوطن الكبير شعوريا فقط، وإنما أيضا – لما لهذا الوطن من دور هام لتحقيق حلم المستقبل الفلسطيني، فعمان "طريقنا إلى القدس" وغير عمان كذلك من عواصم راكدة مستسلمة ضالعة قابعة في العجز لابد أن تكون أيضا "طريقنا وسبيلنا إلى فلسطين".

إن الإحباطات التي شهدتها المنطقة العربية، سواء تعلقت هذه الإحباطات بفلسطين أو بغير فلسطين، فهي تتعلق بها بالضرورة، ووجدت كل النكسات التي منيت بها الأقطار العربية منفذا إلى قلبه العربي، في فترة من أحلك الفترات التي مرت بالوطن الأم فالمنطقة العربية "تعيش في هذه المرحلة ليلا طويلا، لا تقطع أوصاله إلا أصوات القنابل والانفجارات والاعتداءات الإسرائيلية" ولقد تكررت النكبة بالنكسة، وما لم يصنعه الصهاينة في عام ١٩٤٨ تم إحرازه عام ١٩٦٧، ولقد تعرضت جماهير أمتنا عبر العشرين سنة الماضية إلى سلسلة من المذابح والمجازر على يد العدو الصهيوني، كما تعرضت هذه الجماهير ذاتها للمهانة والطرد والتشريد. على الأرض العربية، في الأردن، فمنذ ١٩٤٨ ومرورا بعام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٦٧ قاسى وعانى المواطن الأردني والفلسطيني شتى أنواع البطش والإرهاب على

يد النظام الذى توج بطولاته عام ١٩٧٠ – ١٩٧١ بسلسلة من المجازر الدموية ضد الشعب الفلسطيني المكافح من أجل استرداد بلده وكرامته، "لقد كانت مجزرة أيلول ضد المقاومة في الأردن عام ١٩٧٠ (إعلان) لاستئناف حرب الاستنزاف الإسرائيلية التي لم تتوقف بقبول بعض الدول مشروع روجرز عام ١٩٧٠، فهذه الأنظمة ترى في وجود وبقاء إسرائيل مكسبا ومغنما لبقائها وذلك بسبب ارتباط مصالحها بشكل مباشر مع المصالح الأمريكية وبالتالي مع إسرائيل، إنها ضالعة بالمشاركة مع المخطط الإمبريالى".

إن الرسميين مهتمون بكل شيء، إلا بالمعركة وبالإعداد لها، والعناصر الوطنية مطاردة ومنبوذة أو معتقلة، والمقاومة الفلسطينية مهددة ومحاصرة، والأنظمة الرسمية التي تعبر عن مصالح طبقة معينة تمد يدها للعدو بالصداقة، والمحبة وتنافر الصديق والأصدقاء، وليس هناك شعب من الشعوب ترك جواسيسه وعملاءه ومزورى تاريخه والمتآمرين على قضاياه يمرحون ويسرحون ويرتكبون الإثم ويحكمون ويتصدرون المسئولية في مواقع الإدارة والتوجيه ومرافق الحياة العامة التي تقرر مصير الأجيال المقبلة مثل الشعوب العربية.

وليس هناك صورة أدعى لليأس مثل هذه الصورة التي يرسمها كمال ناصر، لأمة عظيمة تبادر بذبح أبنائها قربانا للاستعمار، وتزلفا للاحتلال، بل وتقدم على التضحية بشعب بأكمله، وبلد بأسره، في سبيل مراضاته، ومن أجل عيون مصالحه. وفي مقابل المناورات والادعاءات والتكتيكات العربية، يقف الكيان الفلسطيني عاريا في

شتاء المحنة، محروما من العون المادى والنفسى، مهددا بالحراب التي يفترض أن تقوم بمعاضدته ومناصرته.

إن ما يزيد من وطأة شعوره بالخيبة، ما توصل إليه بعد النكسة واحتلال إسرائيل للضفة الغربية لنهر الأردن، وسقوط مسقط رأسه – بيرزيت – داخل الأراضى المحتلة، من ان الجيل الذى عاش مأساة فلسطين منذ فصولها الأولى ليس هو جيل العودة إلى الديار المغتصبة والوطن السليب، وفي مذكراته التي نشرها بفلسطين الثورة "على صدوركم باقون" – يتوقف عند هذه المسألة، ويلح عليها "بدأت أحس بصغر وتفاهة آلامى وأوجاعى أمام آلام وأوجاع هؤلاء الناس، الذين قضوا عشرين عاما تحت الاحتلال الصهيوني واختلطت في ذهنى الأفكار وأنا استمع لخيبة أملهم تتدفق مرارة من شفاههم، كما أننى كنت ألمح العزيمة والإصرار والوعى من خلال كل ما قالوا.... وحدهم هؤلاء الناس ومعهم الثلاثمائة ألف فلسطيني الذين عاشوا العشرين سنة الماضية في ظل ما يسمى بدولة إسرائيل، وحدهم الذين يعرفون كل شيء.... وأحسست بعد مضى الساعات الأولى الأربع معهم بأننى تلميذ ابتدائى بسيط في دنيا المعرفة من واجبى أن أتعلم وأتعلم وأتعلم حتى أستطيع أن أدافع عن بلدى وأمتى وأطرد أعداءها من أرضها المغتصبة. واكتشفت عبر هذه الساعات الأولى أن حب الوطن مهما عمق وكبر في النفس لا يكفى مطلقا لتحقيق النصر، كنت أجلس في ركنى أستمع على غير عادة منى أكثر مما أتكلم، واختزن في ذاكرتى الفتية كل ما سمعت. أنقشه في خلايا عقلى

بإصرار لأطرد الكثير من الأوهام التي كانت تعيش فيه. وكنت بين الفينة والأخرى أسرح بخيالى مع الحوار والنقاش الذى يدور في أوساطنا نحن المحتلين الجدد، فأتذكر الفارق الكبير في التحليل والتفسير في المعرفة بيننا وبين هؤلاء الناس. كما نراهن أحيانا فيما بيننا. فيقول أحدنا سيخرج المحتل خلال ثلاثة أشهر، ويراهنه الآخر على ستة أشهر أو على سنة في الكثير الكثير... وحدهم هؤلاء الناس ومن يمثلون من عرب ١٩٤٨ يعرفون بأن الاحتلال لن ينتهى، وأن إسرائيل لن تخرج وأن إسرائيل لن تهزم إلا بشروط قاسية جدا. فهل هذه الشروط متوافرة؟"..

وفي قلب معمعان اليأس والشعور بالخيبة، بدأ الاحتلال الإسرائيلي يقتحمه في صميم تجربته الخاصة، وتلونت تجاربه بألوان الصدامات المباشرة والمحسوسة بعيدا عن عالم المجردات، فلم يعد العدو بعيدا عنه، بل أصبح يزاحمه على نسمة الهواء التي يتنفسها. إن تجربة مثل (حقير)، تلك التي تجرع مهانتها مختبئا تحت السرير من السلطات الأردنية التي تلاحقه لإلقاء القبض عليه، على كل ما أوقعته بكبريائه الحريص عليه من إذلال لا يمكن أن تعادل مرارة التجارب التي بدأ يعانيها داخل الأرض المحتلة، وعن إحدى هذه التجارب يتحدث كمال ناصر في "على صدوركم باقون" أدركت أنني بالرغم من حريتى المزيفة التي أتمتع بها في بلدتى النائية بعض الشيء عن مراكز تحرك العدو ونشاط عناصره في التغلغل إلى كل ركن في المنطقة، أدركت أنني في الأسر شئت أم أبيت، وأنني أعيش في السجن الكبير، وأنني عاجلا أو آجلا سألتقى بأحدهم أو ببعضهم مصادفة، بدأ هذا

الإحساس يكبر في نفسي، واختلط هذا الإحساس بهول الحقيقة، وهو أنه لابد من الالتقاء بهم. رؤيتهم للمرة الأولى هؤلاء الصهاينة القتلة أعداء أمتي ومحتلي وطني، وأرضي، كان لابد من الهرب بطريقة ما بالاختفاء بالتسلل، نفسي ترفض هذا اللقاء وتعافه، لست أخشى من شيء. فأنا أعرفهم تماما تماما. وأتصورهم وأفهم طبيعة حركتهم التوسعية ومع ذلك فلست أريد رؤيتهم.

وهذا موقف شخصي اتخذته خلال لحظات. وبدأت أفكر رغم جراحي ومرضي كيف أهرب وكيف أنجو من هذه الإهانة التي قد تصفعني بين لحظة وأخرى، وتدخل القدر في صميم حريتي وموقفي الشخصي، كانت الدورية الإسرائيلية قد بدأت تقترب من التلة التي أجلس متداعيا فوقها، سألوني عن اسمي وعن هويتي فسميت لهم اسما وأشرت لهم أنني من تلك البلدة حاولوا أن يدخلوا معي في حوار أي حوار. كانت الأرض تميد من تحتي ذلا وعارا. كنت على ما أذكر أتممتم لهم انني مريض مريض وأكرر أنني مريض.... إحساس رهيب وتجربة هائلة سريعة غنية مارستها في دقائق لا يعرفها ولا يفهمها إلا من مر بها أو عاناها، تجربة تركت في نفسي آثارا وانطباعات كان لها ولا يزال لها ذيولها طيلة تجربتي الرهيبة في ظل الاحتلال، وأدركوا ولمسوا أنني مريض، فذهبوا وقمت متجها نحو البلدة. كان العار وشتى الأحاسيس تلفني... مشيت مطأطأ الرأس متحاشيا النظر إلى عيون الأطفال".

في دوامة هذه التجارب العامة والخاصة تصدعت القناعات الفكرية والسياسية وامتدت الجراح إلى صميم التصورات الذاتية الحميمة،

حقيقة، أن الصورة العامة للواقع العربى صورة بالغة المرارة رهيبة الألم، ادعى لليأس.

وحقيقة، فرض الواقع تسويف الأمل إلى أجل غير مسمى، في زمن ما بالمستقبل البعيد الذى يتجاوز عمر جيل النكبة.

وحقيقة، أن للتجارب الخاصة أثر مدمر، بطبيعتها التي تفوق طاقة الاحتمال. إلا أن كل هذه العوامل، على الرغم مما لها من أثر بالغ في إشاعة الأسى في نفس كمال ناصر وتجاربه الوجدانية، لم تكن بالعوامل التي دفعت بالتجربة الشعورية للانسحاب من الخارج والانكفاء على العالم الداخلى. أو على الأقل ليس بهذه البساطة المتناهية. فشاعر وطنى من طراز كمال ناصر يقدر مغبة الالتزام، ومشقة النضال، ووطأة الصعاب والمصاعب التي تعترض الطريق إلى تحقيق الهدف. وليس من الهين على مثل هذا الشاعر بروحه الصادقة الوطنية أن يتخاذل أمام الظروف والمتغيرات المختلفة مهما بلغت درجة مرارتها وما تبعثه من يأس أو أسى.

ويبدو أن كمال ناصر قد اكتشف بعدا "دون كيشوتى" في شخصيته، ليس باكتشاف عدو موهوم كما في الرواية وإنما باكتشافه لأسلحته المزيفة، وللحرب المجانية التي خاض غمارها بهذه الأسلحة، وعانى نوعا من الاغتراب الذاتي نتيجة هذا الاكتشاف اللا حقيقى واللا مجدى، وللطبيعة السيزيفية لتاريخه الشخصى. فمنذ أن طرد من حزب البعث، وانهارت الفكرة القومية المثالية التي كان يعول عليها، وسقط الأمل الفلسطيني الذى علقه على مشجب الأنظمة العربية تدريجيا، جردته الأيام فجأة من قناعاته

الفكرية والسياسية ببرود. فارضة عليه أن يشق طريقه من جديد معدلا مسار الانطلاق وتكتيك التحرك. في الوقت نفسه الذى أمعن فيه النظر بأسف أسيف وحسرة قاهرة إلى نفسه، إلى هذا العمر الطويل الذى أضاعه هباء جريا وراء سراب خادع. وبالألم تجرأ على وضع ذاته تحت طائلة التناول النقدى والفحص، وأصبحت الذات فجأة موضوعا للوعى وللتأمل الوجدانى وللاستفهام الشعورى "قصيدة: الطيف الجبان" – "يا خجلى في المجد هذا أنا".

لقد فرض عليه طريق الكفاح أن يفتش عن قناعات جديدة وأفكار أخرى بصفة دائمة، ولقد خابت مساعيه باستمرار، وتجاوز أفكاره أبدا... إلى أن التحق في النهاية بالكيان الفلسطيني، وطور أفكاره باتجاه استراتيجية الثورة الفلسطينية ومعتقداتها، والتزم بأيديولوجيتها.

لقد كان الواقع الفلسطيني أسرع في التطور من تطوره الفكرى، وهذا ما بدا واضحا من موقفه من الكفاح المسلح أثناء وجوده بالأرض المحتلة أعقاب النكسة، حيث كان يعمل على تنظيم الكفاح السلبي. وأن كان قد تمتع بالمرونة النادرة والإخلاص الشديد للقضية مما سمح له بالانتقال الفجائى إلى موقع الحركة الوطنية في نموها المتصاعد على طريق النضال، ومع هذا فمن غير المتوقع أن تتم هذه الانتقالات الفجائية المصححة للموقف الشخصى دون ذيول نفسية أليمة، لها علاقة خاصة بتصوره عن جدواه ومدى فاعليته الفردية. والحق أنه كان يسلم تسليما بأن القضية الفلسطينية أكبر من قياداتها ومن أشخاصها، ويبدو أن تسليمه هذا إحدى نتائج تجاربه الفعلية وملاحظاته المبدئية لمواقفه، مع تسليمنا أيضا بصحة ما ذهب إليه.

وكما كان الواقع أسبق من تطوره الفكرى، كان تطوره الفكرى أسبق من تطوره الشعورى، ولقد جره هذا التطور إلى مزيد من المتناقضات النفسية وهو ما سبقت الإشارة إليه في موقفه من القيم المسيحية، وفي ثورته وتألبه عليها، ورفضها، وإن كانت هذه أيضا نتيجة لمجموعة التناقضات الفكرية التي لم يحسمها من موقع نظرى متماسك.

ولا ريب أن كل هذه التناقضات الأساسية جردته من التوافق النفسى والاطمئنان الروحى، وأبرزت حدة المشاكل النفسية التي بدأ يعانيها، متوترا، وبالضرورة دفعه التوتر والقلق إلى طرح ذاته، باحثا عن الأمان المفقود، والاستقرار المطلوب والانتماء اللازم لعقيدة ولوطن، ولهوية متماسكة ومؤثرة وفعالة، ولمصير واضح المعالم.

وتحت طائلة التهديد الخارجي المستمر سواء من المحتل الصيهونى أو الرجعي العربى، ارتعشت أعماقه بالرغبة في الحياة، دون أمل أكيد أو قريب التحقق. في الوقت الذى هو بمسيس الحاجة فيه إلى هذا الأمل، مجرد الأمل ليتعلق بقطار الحياة الغارب في إطار واقع لم يعد به شيء ثابت، أو أكيد أو حقيقى، أطاح بمجموع قيمه الوجدانية دون أن يوفر له الوقت لاستنبات غيرها، لتملأ فراغه الروحى، وكساه بمجموعة أخرى من المعتقدات دون أن تتاح له فرصة للتوحد بها والتأقلم معها.

ومع مثل هذه المشاكل، من الطبيعى أن يطرح عالمه الفني سؤاله عن الوجود الإنسانى بصفته الأولية، مهتما بلغز الحياة والمصير البشرى.

مسألة الارتباط:

إن مشاعر الغربة على نحو ما هي الوجدان المؤلم لافتقاد الارتباطات الحميمة بالحياة، وتحت شمس الأمل ظل كمال ناصر المتحمس للمستقبل متعلقا بإهاب الزمن الذى يأتي، مستمدا الحرارة والدفء والفاعلية من أهمية الآتى المشرق القريب. وكما أن الرياح لا تأتى دائما بما تشتهى السفن، انقطع الخيط الرفيع الذى يربطه بالمستقبل، ففقدت القناعات الروحية العميقة توازنها، واختل بناؤه النفسى، وتحطم اقتناعه بالوجود على صخرة حبه الجامح وعواطفه المحرومة.

حياة جافة هذه التي فرضها على نفسه كمال ناصر مترقبا يوم العودة إلى ملاعب الطفولة والأوقات الدافئة بالمسرات، يراوده شجن عميق اللهفة إلى الذوبان في جلجلة ضحكة طفلة تشرق في صحوة بيته وتدغدغ حواسه، حتى ضعف الأمل، وداهمته الأربعون ثقيلة الوقع، وبدت على مشارف العمر مخايل الخمسين الكئيبة مؤذنة برحيل قريب، والطريق إلى يافا وحيفا وعكا والناصرة تعتوره المصاعب والعقبات، وبينه وبين البحر مزيد من الخيانات والأطماع والدسائس، ومزيد من العجز وعدم القدرة على شق السبيل وحيدا، وتحت هذه السماء المعتمة الملبدة بغيوم المهانة والخيانة انتشر مستنقع المشاعر السوداء تحت سطح الجلد.

"حبيبى
إذا ما أتاك الخبر
وصاح النعاه

يقولون مات الوفى وغاضت رؤاه
ونام العبير بحضن الزهر
فلا تبكنى وابتسم للحياه
وقل لوحيدى، لأنى أحب وحيدى
أبوك رؤى شعبه
أضاءت دجى قلبه
وحطت على دربه
شظايا فكر
رأى الظلم يدمى رباه
فثار إلى مبتغاه
وكان شهيدا
وكل شهيد إله
وعمق من وحيها وابتكر
تسامى فلون معنى الصلاة
فسالت نضالا دماه
وماجت إباء رؤاه
تهز مصير القدر

"الوصية الأخيرة"

تقدم الوصية الأخيرة، مفاتيح تفهم المرحلة الفنية الأخيرة لكمال ناصر، بكثير من الوضوح والإيجاز.

إن الموت الذى يختصه بالفعل الماضى (مات)، هو الحقيقة الوحيدة الأكيدة الحدوث، أو الحقيقة الكبرى التي تذيل الوجود بعلامة استفهام، وترغم الحياة على روعتها للانحناء للتساؤل والدهشة. ولكن "الوصية الأخيرة" تقدم الموت ليس كفكرة مجردة، ولا كتأمل ميتافيزيقى منعدم الصلة بالواقع، فالارتباط وثيق بين فكرة الموت وبين الحياة، كمجموعة من العلاقات الإنسانية المفتقدة، فالموت الطارئ مستدعى للإحساس بالافتقار إلى الارتباطات الحميمة، فإذا كان الفعل الماضى قد بلور مدى إحساس كمال ناصر بالموت كحقيقة دامغة ومؤكدة فإن الخيال الشعرى يضع هذه الحقيقة في موضعها على تصاعد الخط الشعورى للتجربة كمستدعى لانتفاء العلاقات الإنسانية، وإحساس المرارة بهذا الانتفاء يصوره الخيال الشعرى متألما بتوجيه النداء المستغيث إلى حبيبة لا وجود لها وإلى ابن موهوم، أي بارتقائه باللا حقيقى إلى مصاف الحقيقى، وبهذا التوجه يتحول مسار التجربة الشعرية من التدفق في نهر اللا معقول والغائى إلى مجرى المعقول والواقعى، بانتزاع الصفة المطلقة للموت وتقديمه كمقولة خاضعة للاعتبارات الاجتماعية أو السياسية "(الزمنية)"، وعرضه بهذه المحدودية داخل إطار التجربة الشعرية، ومن أسر الزمن (المعقول) ينبعث صليل قيود الغربة، لتغطى ضجتها أجواء المرحلة الفنية الأخيرة. كمرحلة متصلة بمراحله الفنية السابقة، التي تأتطر بالأطر العامة، وبمعنى آخر يمكن تفهم مشاعر الغربة مهما كانت ذات صيغة أو حتى طبيعة وجودية، كوضعية فلسطينية تاريخية، شديدة الواقعية يضع كمال ناصر أناملنا عليها. كظاهرة عامة من خلال تحسس فردى خاص.

وإذا سلمنا بكل هذا، نكون قد توصلنا إلى المأساة الخاصة بكمال ناصر أن الصلة بينه – كشاعر على الأقل – وبين الحياة المبررة والمعقولة صلة قائمة على أساس افتراض غير حقيقي، وحياته نفسها بكل إشراقها النضالي بدون هذا الافتراض تتهاوى بلا معنى، أن الوصية الأخيرة تستجدى قيمة المعاش والشخصي بالتمحك المستمر بالعلاقة المفترضة التي تقوم بينه وبين هذه الزوجة والابن المتخيلين، فما كان متزوجا، وما كان أبا، وجدواه رهين بوجودهما على نحو يثير الفزع، فلا شيء يمكن أن يعادل قوة هذه العلاقة شديدة الخصوبة، حتى ولو كان هذا الشيء مكانة اجتماعية مرموقة، أو وضعا اجتماعيا مؤثرا:

حبيبي... إذا ما أتاك الخبر
وجاء الرفاق إليك
وفى مقلتيك بقايا حذر
ترفق بهم. وابتسم للجميع
فموتى حياة الجميع
سفحت ربيعي خريفا... ليبقى الربيع
وخليت أحلام شعبي عليه
أصلي لديه، وأحيا لديه
وبي نشوة المبدع
تزغرد في أضلعي
تعلمني الحب في كل يوم
وتسرى كفاحا بروحي وجسمي

فأخلد في بال صحبي وقومي...
وأبقى على جفن زهوى وحلمى
وأبقى ببال الذكر

***

حبيبى
إذا ما أتاك الخبر
فخفت عليا
وسار الشحوب إلى وجنتيك
كسيرا نقيا شحوب القمر
فلا تجعلنه يطيل عليك
ليشرب من مقلتيك
لأنى أغار عليك ضياء القمر
وقل لوحيدى
لأنى أحب وحيدى
بأنى تذوقت معنى العطاء
ولذ لقلبى جرح الفداء
ولم يبق منى إليه
سوى زفرة من نشيدى
وإشلاء عودى
تكوم في دارنا وانتشر

وقل لوحيدى، إذا زار قبرى
وحن لذكرى
بأنى سأرجع يوما إليه
لأجنى الثمر

الحنين لأسرة، والرغبة العارمة في طفل، وجدان ذو صلة وثيقة في تصور كمال ناصر بمسار القضية الفلسطينية، التي ترهّب للنضال من أجلها في سبيل عودة مستقبله، ولقد أدى اكتشافه بأن هذا المستقبل يتجاوز حدود المتاح له من الحياة، إلى اغتناء الظمأ إلى الأطفال بأعماق شعورية جديدة كظمأ لتلمس المستقبل بأصابع جيل آخر من الأجيال، وكظمأ للظفر بفلسطين، بامتداد إرادة الكفاح وتوريثها للأبناء جيل العودة، فتلهفه الإنسانى للخلود ينطلق من حس وطنى، وإن تمادى في الانطلاق بعد ذلك:

ويمـــر الزمـــان مـــرا بطيئـــا
وتمـــوت السنـــون أثر السنيـــن
وتعـــودين للـــديار اشـــتياقا
وحواليـــك مـــن صـــغار البـــنين
وتعـــودين في المســـاء بـــدربى
تلمحين المســـاء فـــوق غضـــونى
وتطـــيلين نظـــرة لحطـــامى
في فضـــول كأنمـــا تعـــرفينى

وتصـــيحين بالصـــغار فيمضـــى
واحـــد في ســـعادة يحتـــوينى

(لحظة ظمأ إلى دنيا الأطفال)

ولا ريب أن مشاعر كمال ناصر حين توصلت إلى عقد هذه الوشائح المتينة بين عالم الطفولة وعالم المستقبل، جلبت أهوالا من الآلام المعذبة وألقتها على عاتقه، ببلورتها للمشكلة، لقد دارت حياته في فلك القضية الفلسطينية على نحو كامل بشطريها العام والخاص، بل وبطغيان الحياة العامة على حساب حياته الخاصة، ثم وفدت قناعاته الأخيرة لتؤكد على أن انتصار القضية برمتها يتوقف على هذا الجانب الخاص المهمل أيضا، وليس فقط على ما بذله من نشاط عام. وتنبه مؤخرا إلى أن الخطأ الذى ارتكبه بحماس وطنى قد أخرجه من إطار المشاركة في صنع مستقبل فلسطين العودة (لأجنى الثمر)، ومن ثم تحولت حياته البينة الخلل في تصوره إلى جريمة، ومست الإدانة المتألمة تاريخه النضالى، فبواقع تصوره الوجدانى للنتائج التي حققها والنتائج التي لم تتحقق بدأ يتحسس تفاهة الحياة التي مارسها في الوقت الذى لم يعد بمقدوره أن يمد يدى التغيير لتصويب هذا الخطأ.

اعلم أننى انتهيت
لم يبق من أحبه
ومن يحبنى
اللذة التي مارستها

في موكب العطاء والفداء
لم تعد تلهبنى

***

وأننى انزلقت
وانثنيت
في لحظة زائلة
تشبهنى
لشد ما تشبهنى
ماذا إذا شكوت أو بكيت
هل تضحك الحياة لى
وهل يموج الحب في جداولى
وتورق الرؤى على خمائلى
وهل تعود قدرتى على العطاء والفداء
ويستفيق الكبر في معاقلى
ماذا أنا إذا شكوت أو بكيت
ما يظل لى
فلست أطلب المنى
فأننى لم يبق من أحبه
ومن يحبنى

***

ماذا أنا جنيت
يا حب ما جنيت
مستنقعى يغرق بى
يشدنى
يشربنى
وقبضتى مريضة تضربنى
تضربنى
تود لو أكون مثلما أتيت
كما أتيت.. ..
لكننى لا أستطيع أن أكون مثلما أتيت
لأننى رأيت.. ..
رأيت كل شارع وبيت ...
فانتهيت.. ..
فلم أعد أحبه
مستنقعى
ولم يعد يحبنى
ولم أعد ألهبه
ولم يعد يلهبنى
وانتصبت جريمتى
تصلبنى

(النهاية)

كان لهذ التطور الوجداني الأثر كله في تغير صورة البطل، ومفهوم البطولة عند كمال ناصر، لم تعد البطولة تعني التخلي عن الخاص (الذات) في سبيل العام فهذه الجناية المرتكبة تمس القضية المنشودة وتحول دون تحققها، أن البطل الفلسطيني يزداد غنى وفاعلية على مستوى الواقع، كلما كان أكثر امتلاء بالشخصي والذاتي، وانعكس هذا المفهوم على موضوع القصيدة، بتناولها للتجارب الذاتية والمشاعر الأشد خصوصية، دونما حرج، وبتغير موضوع القصيدة وطبيعة التأمل تغيرت اللغة الشعرية، وبذل كمال ناصر محاولات عديدة لتطوير الأداء الأدبي...

* * *

لقد تناولنا مسألة العلاقات الإنسانية من جانب ارتباطها وتأثيرها على المستقبل، كانفلات للمستقبل من حاضر الأنا، مما جعل اللحظة الراهنة لحظة بلا امتداد، وبلا أمل، لحظة منقطعة الصلة بالآتي، بالتاريخ، ولحظة داكنة القتامة.

واللحظة الراهنة أيضا، لحظة نابضة بفجيعة أخرى "فأنني لم يبق من أحبه ومن يحبني"، لقد نضبت اللحظة الحاضرة من الصلات العاطفية، لا لعدم القدرة على الارتباط الحميم بالآخرين، ولكن للدهشة لعدم وجود هؤلاء الآخرين. إن تجربة شعرية بهذه القسوة، تجربة ملفتة للنظر، مثيرة للاستغراب، خاصة إذا كانت لرجل يقدر تقديرا بالغا العلاقات الإنسانية، وأحد أحلى خصاله حرص على

إنماء هذه العلاقات، والمحافظة عليها، فلقد كان ميالا إلى تجنب الصراعات الشخصية، متحمسا لتوكيد الروابط وهو السبيل الذى هيأ له القيام بدور الضمير والوسيط الإنسانى بين المنظمات الفلسطينية المختلفة والمختلفة، ولعبت خصائصه النفسية هذه دورها في تقريب وجهات النظر، وتلافى عوامل الخلاف والاختلاف بين القيادات المتباينة، وهو دور عرف به وسجل له، بل ولا أدل على تقديره البالغ للعلاقات الإنسانية من أنه برغم الأعباء والمشاكل التي ينوء تحت ثقلها، قد اختفى من الدوائر التي تعود ارتيادها، وعن جميع من تربطهم به علاقات زمالة نحو الأسبوع الكامل، تبين فيما بعد أنه قضاه بجوار أمه التي أتت لزيارته في بيروت، راهنا الوقت كله للتنعم بهذه الزيارة، ويبدو أن هذه الخصال هي المقابل لحسه المتعطش للارتباط بالآخرين.

لم يفقد كمال ناصر إحساسه بالآخرين، ولم يفقد قدرته على الحب، بل إن القدرة على منح الحب والإخلاص للعواطف، من الميزات الأساسية التي يتمتع بها. ولقد انضوت حياة كمال ناصر العاطفية على ما يشبه مأساة "بين ريتا وعيوني بندقية" فبعض الكتابات تؤكد غرامه بفتاة يهودية منذ الصبا الباكر "موللى" وأنه انتهز فرصة تواجده بالأرض المحتلة عقب نكسة ١٩٦٧ لزيارتها وربما أسقط قصته مع "موللى" على من أسماه صديقه "ع" في مذكراته "على صدوركم باقون".

إن تجربة "لم يبق من أحبه ومن يحبنى" إذا بحثت من خلال الشعر الذى كتبه عن المرأة، وشعره العاطفى، قد تجد إجابة فيما فرضه على نفسه بعد النكبة، وتقف بنا قصيدة "ما أروع الشاعر ما أبراه" على نوع من التعفف القاسى الذى فرضه على نفسه، تحت تأثير تصوره للبطل كمثل أعلى الذى استمده من التصورات المسيحية، وهو تصور يرتقى بالبطل إلى التشبه بالمسيح...

روضـــت بـــاريس وأذللتـــها
ولم أضـــاجع في ثراهـــا امـــرأة
وكنـــت ألـــوى دفتـــى كلمـــا
أرى شـــراعى عـــابرا مرفـــأه
كتـــاب لهـــو أحمـــر ثـــائر
قلبتـــه أبيـــت أن أقـــرأه
وقال صحـــبى كلمـــا أقبلـــوا
مـــا أروع الشـــاعر مـــا أبـــرأه
أضـــاءه الطهـــر بلألائـــه
وانطفـــأ الـــرجس ومـــا أطفـــأه

وأسلوب الشاعر في هذه القصيدة أقرب للتقرير الخبرى الحقيقى "لم أضاجع" أما الصورة الشعرية فتعكس ارتباطاته الوجدانية المحدودة، ويتبدى هذا في عدم توهج الطاقة الخيالية لعدم التجاوب العاطفى

الكافى مع الموضوع. فالصورة العادية الشائعة الاستعمال هي سمة مميزة في هذه القصيدة "كنت ألوى دفتى" ومن ناحية أخرى فالصورة المستحدثة باريس "كتاب هو" تضع أيدينا على خشونة الحياة التي يمارسها، أما جزالة الموسيقى وتنوع الإيقاع فأقرب إلى الخفوت وإلى الأسى. ونادرة هي القصائد التي كتبها كمال ناصر عن المرأة، باستثناء قصائد المرحلة المبكرة من حياته، فخلال هذه المرحلة وجدت حيوية العواطف اليافعة في الرومانسية المعين الثرى الذى تنهل منه، وتنسج على منواله، أما في غير هذه القصائد فليس له إنتاج يذكر.

ومن الجدير أن نقف بالبحث ونحن ننظر إلى موضوع المرأة، إلى أثر افتقاد الشاعر للعلاقات الإنسانية على شعوره بأهمية الحياة وإحساسه بجمالها، ومثل علاقته بالمرأة مثل كافة العلاقات الإنسانية المحيطة به، ونقصد بهذه العلاقات الحميمة منها والتي تهتم بالجانب الإنسانى بغض النظر عن كافة الاعتبارات الأخرى الخاصة بوضعه الاجتماعى أو السياسي، ولا يغيب عن الذهن أهمية هذه العلاقات في معرفته لنفسه باعتبار أن الآخرين شرط لهذه المعرفة للذات، وتبدو أهمية العلاقات الحميمة هنا من التغير الذى لحق بنظرته نحو نفسه كذات عامة أو كذات تمارس النشاط العام، أنكرت على نفسها ما دون ذلك من العلاقات، فبواقع هذه النظرة تتبدى حاجته النفسية لعلاقة على جانب عظيم من الخصوصية تدعم اعتباره لذاته، وتدل خطواته إلى هويته الإنسانية، بعد أن أدرك مرحلية دوره العام.

وهو شعور ضخم من إحساسه الوجدانى بمأساة الإمكانيات الإنسانية المشروطة بمقولتى الزمان والمكان، في اتجاه آخر.

لقد بوغت كمال ناصر بتقديره الجديد لوضعه في الواقع، دون أن تتهيأ له الظروف لإعادة توازنه النفسى بمساعدة الآخرين الأحباء، كما لم يكن في العمر فرصة لتكوين هذه العلاقات، وما أشد حاجته إليها، وتعكس الرؤية الوجدانية حدة الظمأ الذى بدأ يكابده متشوقا إلى أحبه، ولا ريب أن وجود هذه العلاقات كان قمينا باستعادته للهدوء النفسى والشعور بالأهمية الذاتية والتوافق مع النفس، والحماس للحياة. فتقبل الحياة يتوقف إلى مدى بعيد على تقبل النفس ولنقارن قصيدة "(النهاية) لم يبق من أحبه ومن يحبنى" بقصيدة من قصائد المرحلة المبكرة:

هنـــاك هنـــاك علـــى الرابيـــه
جننـــت بليلـــى وجنـــت بيـــه
هناك استحـــال الزمان عشيقين
لا يعبئـــــان أنـــــا وهيـــــه
فلـــم يبق في الأرض شيء سوانا
فأشـــكو إليهـــا وتشـــكو ليـــه
كـــأنى بهـــذى الـــدنى آدم
وحـــــولى تمـــــرح حوائيـــــه
هناك احتويـــت الغـــرام بريئـــا
بعيـــدا عـــن اللـــذة الفانيـــة

هناك ضممـــت الوجود وهمت
إلى الأفـــق تخطـــر آماليـــه
وأهـــدى لى الحـــب أحلامـــه
فراحـــت تعـــانق أحلاميـــه
هنـــاك هنـــاك علـــى الرابيـــه
جننـــت بليلـــى وجنـــت بيـــه
فلـــم أصـــح إلا على همســـة
من الغيـــب تســـرى بأعماقيـــه
تتمتم للقلـــب ســـر الحـــياة
فتبعـــثنى مـــرة ثانيـــة

(إليها)

فعلى الرغم من أن هذه القصيدة تنتمى إلى قصائد المرحلة الأولى حيث لم يكن الشعر قد استقام له بعد، إلا أن لحظة الحب، لحظة معرفة الذات مع الآخر تعكس الثقة الزائدة بالحياة، وهى ثقة ذات تأثير فعال في استحضار الحياة بكل إشراقها وجمالها، ينهل وجدان الشاعر من أضوائها وعذوبتها الاغتناء والتعدد والامتلاء، من موقع قوة واحتواء للعناصر العديدة المتزاحمة الباهرة، أي سطوة إنسانية كان يشعر بها آدم وهو يحتضن حواء، البشرية جميعها، امتلاك الوجود كله، والمستقبل جميعه زمن لا يعانى ولا يعبأ، سرمدى خالد، لحظة تتمتم للقلب بسر الحياة، فيولد بصفة دائمة ويتجدد باستمرار.

هل هذه اللحظة هي ما كان يبحث عنه كمال ناصر، وما كان يفتقده، يبدو أن الأمر أيضا كان كذلك. لقد استدار استدارة كاملة برؤيته الشعرية متشوفا للحب والحياة برومانسية مستعادة، وحاول أن يجدد ارتباطه العاطفى بالآخرين دون طائل، محاولا بذلك توثيق نفسه بالوجود. إن الاستفسار المعذب الذى نهش أعماقه عن سر الوجود في جنبى من أنا، ومن رمانى قسوة هنا" يولد رغبة عارمة للاتصال الإنساني "أظل أكتب"، ففي رسالته إلى أمه يندفع بتأثير حيرته في موكب الزمن، وغربته في الأهل والوطن وكل ما يحسه من الشجن، إلى محاولة العبور إلى ملاذها الحنون "فطالما إليك كنت أهرب.... ما زلت أهرب"، ولم يكن ثمة علاقة ممكنة أخرى، وعاطفة متاحة أمامه غير هذه العاطفة، ليندفع إليها:

من لا مكان في الدنى
في قمتى الجريحة الوجدان والحنان
أريد أن أظل أكتب
أريد أن أمد حرفا بيننا من المنى
أعبره إليك في حنان
مستلهما من سره الصمود والإيمان
لعلنى إليك أقرب

***

أريد ان أعيد مولدى
أريد أن أعيده في الأبد ... فانجب
أريد أن أنشق عن أمسى
وعن تعددى
وعن غدى
أريد لو أرق كالغمام في الرؤى وأعذب
أريد لو أبوح بالذى يموج بى ويصخب
مواسمى تعفنت
تآكلت
أحسها بى تنضب
أريد لو أسقى الذرى من سرها وأشرب
أريد لو تعبرنى الحياة ثائرا فأصلب
فقد مضى الشتاء بالربيع عنوة
وقد بدأت أتعب
وحدى على المدى، من لا مكان في الدنى
إليك أكتب
أشد أوجاعى إلى وساوسى
وأكتب
وأكتب

(من لا مكان في الدنى...)

لقد اكتشف كمال ناصر مفهوما للغربة متطورا عن مفهوم "هارون هاشم رشيد" لماذا نحن يا أبتى... لماذا نحن أغراب" لقد احتفظ هارون بما كان يعوز كمال ناصر من مشاعر قرابة (أبتى)، ولم تتجاوز غربة هارون حدود الاغتراب عن الأرض، أما غرابة كمال ناصر فإن فقدانها للأرض يمثل ضياع الشرط الموضوعى، لتنامى المجتمع الإنسانى بعلاقاته العاطفية، كما يمثل أيضا تدهور إحساسه بالحياة الحقيقية. لقد كف التاريخ عن تقديم فرصة الترابط العاطفى، وما توصلت إليه تجربته الوجدانية لا يمكن فهمه إلا من خلال منظور رحب للظرف التاريخى، فرفض كمال ناصر ليس للحياة وإنما لشكل الحياة المتاح والممكن، وهنا يكمن كل إحساسه بالاغتراب، أن المتمنى في التجربة الشعرية هو الحقيقى والصدق، أما المتاح والواقعى فهو اللا حقيقى المرفوض، ومن هذه الحدود يبدأ عدم انسجامه مع الممكن ورفضه لشروط الوجود كما هو قائم، وكما هو صعب التغيير بالنسبة لذاته لا للتاريخ، فكمال ناصر لم يفقد إيمانه بقدرة التاريخ على التطور إلى أحسن، ولم يفقد حبه لصناع هذا التاريخ أو يشكك في قدرتهم. ولا يمكن الادعاء بأنه عانى مشكلة حرية على مستوى ميتافيزيقى، فرؤيته الشعرية تتأسس حول اعتبارات عامة واضحة وظروف خاصة تنبنى على هذه الاعتبارات.

الفلسطيني التائه – والفردوس المفقود:

بدأت العلاقة العاطفية بين كمال ناصر والطبيعة، ككل قصص الحب المألوفة بنظرة "يا ملهم الكون فيضا من بشاشته.. أغراك في الكون ما في الكون أغرانا، عطر شجى وأشياء منمنمة... تفتر في المنتهى القدسى ألوانا"، لقد تملى من الطبيعة الفلسطينية فخلبت لبه، وأثارت مكامن فتون وافتتان قلبه المرهف الحس، ولسنا بحاجة إلى سرد جمال الجنة الفلسطينية، التي لا تستطيع أعمق الدراسات الجغرافية موضوعية وتجريدا علميا أن تخفى سحر طبيعتها الرائعة، بزيتونها وبرتقالها وجبالها ووديانها ومروجها وأنهارها وصحاريها، لقد عشق كمال ناصر فلسطين، وتدله في حبها، كما تدله في حبها الجميع واستحوذت الأرض على صميم عواطفه قبل أن تستحوذ على مشاعره فكرة الوطن.

تبدو الطبيعة في التجربة الشعرية مصدرا للسعادة الكلية، وكشرط جوهرى للحظة الممتعة، وللتواصل الإنساني، وللتواصل للجميل، وتقترن الرغبات المتعطشة للبهجة متعجلة للاندماج بالظاهرة الطبيعية "هيا إلى الأحراج نستبق الضحى.. فنخلد الذكرى مدى الأيام". فاللحظات الإنسانية يستحيل تحقيقها بعيدا عن المباهج الطبيعية، باعتبارها الجزء المتمم لهذه اللحظات، ولم يكن كمال ناصر يتصور بلوغ ذروة النشوة إلا عن طريق امتلاك الجمال الكونى، ومزج الحياة بالشعر الكامن في مظاهر الطبيعة المحيطة، وبغير هذه

المظاهر يفقد القدرة على الإحساس بالسعادة والتنعم بالحب والحياة، وليس بغريب عليه أن يطلب العون في قصيدته "إلى بنت الطبيعة" بنوع من المناشدة المتوسلة "هيا أعينيني" وأن تتصل المناشدة بأمر يتمنى "نامي على حضن الطبيعة".

نامي على حضن الطبيعة نـــامي
يا سحـــر إلهامـــي وســـر غرامي
نامي فقد نامت عصافير المســـا
وتمتـــــع العشـــــاق بـــــالأحلام
هيا أعينيني فقد بـــات الهـــوى
يستل من جسدى النحيل عظامي

(إلى بنت الطبيعة)

إن اللحظة الإنسانية لحظة آيلة للزوال، متداعية المعنى، ولحظة جزئية غاية في الجزئية، لا ترقى لمصاف المطلق الخالد اللا متناهي، إلا عن طريق انتشالها بأجنحة الطبيعة المطلقة الخالدة، إن خصوبة الحياة الإنسانية الزائلة، خصوبة مضافة إليها، وليست نابعة من عناصرها الذاتية، وما الحياة الجميلة إلا تعبير حرفي عن جمال الطبيعي الخالد "انشديني فلست أصغي إليك.. إنما للسماء في شفتيك".

ومهما بلغ الفعل الإنساني من أهمية، يظل فعلا خامل الأثر محدود الذكر، إذا قورن بعظمة الحياة المستمرة، وحين يصبو الخيال الشعري

إلى تبجيل الفعل الإنسانى وتعظيمه، يلجأ إلى تشبيهه بعظمة الظاهرة الطبيعية "لك ذكر كالزهر يبقى جنينا.. في جبين الخلود ريان عاطر".

لقد بلغ كمال ناصر في تبجيله للطبيعة حد تأليهها، ومع هذا لم يجرفه التيار الشعورى لغمار التصوف، فالرؤية الوجدانية احتفظت بالعلاقة الجدلية بين الإنسان والأشياء، وظل للوعى الإنسانى استقلاله المحفوظ، فتعذر عليه الذوبان في بحر الأشواق السرمدية، واستقرت التجربة الروحية بمجال التوازن بين طرفى معادلة الوعى: الذات – العالم، إن قشة الإنقاذ التي حملت التجربة الشعورية إلى بر الواقعية، أو على الأقل بالقرب من ضفافها، هي تقديره لدور الإدراك البشرى في عملية المعرفة الوجدانية، والتحسس الجمالى للعالم، فالعالم الخارجي لم يستقل ويفرض وجوده بصفة مطلقة، فاحتياج الأشياء لمن يدركها ظلل أطراف حرية الأشياء بظلال التبعية للوجود الإنسانى،إن الطبيعة التي تمنح تستمد جمالها من الخصائص المزاجية للواعى، ووجودها لا يتحقق إلا بالتقاء الدخيلة المدركة بالخارجي الكائن، أي بوجود الإنسان نفسه، كوعى وكحرية كإرادة وسيطرة تتحمل عبء المعرفة، وعبء مسئولية تنظيم العالم وفهمه، "لأجلك كانت الدنيا سريرا... فظلى فوق مسبحه الفسيح" و"مزجت دمائى بطهر الحياة... فراحت تثور بأعراقيه، فلم أر إلا الجمال حبيبا... يعانق روحى واهوائيه".

تعقد التجربة الشعورية أواصر الصداقة بين الإنسان والطبيعة، وتملى على هذه الصداقة روح الندية، وتحتفظ بالتأثير المتبادل لكل

طرف منهما على الطرف الآخر، وتغتنى التجربة الوجدانية بتيقظ صحو للعالمين المادى والروحى، فتزهر المشاعر بأريج عطر وفريد، ويعكس العمل الإبداعى هذا التآلف الحميم الوطيد بين الشاعر والأشياء، فكما أن "الطير قد غنى ورنم ضاحكا... لما رأى العشاق في استسلام" نجد الشاعر في تجربة أخرى يتعذر عليه الغناء وسط طبيعة متجهمة ضنينة:

سار عند الغروب عبر الجنان
شاعر الحب والصبا والأمانى
يتحدى الإلهام يأبى عليه
ويغنى فتزدريه الأغانى
ما له اليوم أنكرته رؤاه ..
ما له اليوم قد جفته المعانى
هام في الروض يستثير سناه
فإذا الروض معرض متوانى

(الطبيعة المتجهمة)

أزهر الإنسانى بأحضان الطبيعة، كما أزهرت الطبيعة بأحضان الإنسانى، ولم يتوقف كمال ناصر عند حدود المعاينة الوجدانية المتعاطفة مع سطح الظاهرة الطبيعية وصفا متعلقا بالتناسق الذى تتجلى به هذه الظاهرة، على غرار "خلع الربيع على غصون البان... حللا فواصلها على الكثبان، ونمت فروع الدوح حتى صافحت... كفل الكثيب ذوائب الأغصان" فلم يعتن كمال ناصر بالظاهرة مستقلة عن الحياة الإنسانية.

تنامت معطيات التجربة الوجدانية مع حركة الواقع، وتأثرت بالأحداث المتتالية، وبعد مرحلة الصبا، انفصمت عرى المحبة الساذجة المسرورة بالظاهرة الطبيعية، وتلون المشهد الخارجي بالمأساة، وتطورت الصيغة الإنسانية للظاهرة وجدانيا، لا كتوصل للإنسانى، وإنما كمحتوى واقعى. فالتأمل الجمالى للطبيعى ينزع الحجاب عن الجمال التاريخى للمشهد، ويبرز مدلوله الوثيق بالهوية الفلسطينية، والوعى الفني الذى يؤصل الجمال مازجا شروط الجميل بجوهر المقاوم.

تلك حيفا فقف بها يا جنـــاحى
لا تصـــفق في درهـــا المســـتباح
وأخشع الآن رهبـــة في ذراهـــا
فعليها من راعشـــات جراحـــى
تلك أكامها الحســـان الغـــوالى
مشرفات على السهول الفساح
راويات للمجد ملحمـــة المجـــد
أســـــاطير نخـــــوة وصـــــلاح
هو ذا الكرمـــل المطـــل علـــى
البحر صمود لعاصفـــات الريـــاح
صـــــلبته أوهامـــــه في ذراه
بـــين شـــدقى هزيمـــة وكفـــاح
خالـــد رغـــم أنفـــه والليـــالى
في روابيـــه خالـــدات الطمـــاح

لم يهـــن والسنـــا يموج بعطفيـــه
ويـــــزرى بالغاصـــــب المجتـــــاح
يا رباه السكرى بأخيلة الشـــوق
ولفـــح النـــوى وحـــر الـــبراح
مقسما بالثـــرى الجريـــح على
الأرض يروى بالحق حمر الأقاحـــى

(أنشودة الحقد)

لقد طغى الحس التاريخى على وعيه بالعالم، والتعدد الخصب لمظاهر الحياة تقلص للمرور من سم المأساة، وسيق سوقا باتجاه القضية بإلحاح وبصفة مستمرة، وأنتجت شاعرية كمال ناصر أروع مراثيها التي تتغنى بالأرض الفلسطينية، نابضة بألم عظيم، عازفة على أوتار الشجون الدامية، وتوثقت علاقة الشاعر بالأرض بالحرمان منها. قبل أن ينفصل عنها وتنفصل عنه.

من خلال المأســـاة ألمـــح يافـــا
كسراب يمشـــى إليهـــا الجليـــل
ومن الظلمـــة الرهيبـــة يبـــدو
جبـــل القـــدس عانقتـــه الخليـــل
حرم للجمـــال مـــد ذراعيـــه
فعـــــز العنـــــاق والتقبيـــــل

إلى سراب خادع، خبت أضواء يافا، والقيمة الجمالية التي سحرت لبه فرغت من محتواها، وأفعمت باليأس والألم، واكتشف كمال ناصر شراك الخداع التي وقع بين براثنها وجدانه، فبقدر ما توثقت علاقة الأرض والظاهرة الطبيعية بالتاريخ بقدر ما أطرد إحساسه بالغربة، وبالاغتراب الشعوري عن هذه الأرض، فها هي يافا الساطعة، تسعى إلى سيدها الجديد، تنيله من ثمارها الناضجة ما سبق وأرخصته له، وليته يستطيع الكف عن حبها، أو الاشتياق لها والحنين إليها.

تلك يافا الشهية الضرع تبـــدو
كبريـــاء في غمـــرة الأضـــواء
لم يـــزل برتقالهـــا يتـــهادى
فـــوق أغصانها بأسخـــى العطـــاء
ناشر في جناتهـــا الخمـــر عطـــرا
مشـــرئبا بـــالخير والأنـــداء
عز في قبضـــة الغريـــب ذبـــولا
فانتشـــى في بـــراثن الغربـــاء

(أنشودة الحقد)

لقد هجرته فلسطين، دون أن تأسو على جراحه، وحيث لا يمكن لأرض أخرى أن تملأ خياله وتشبع عواطفه، أن القصائد التي كتبها عن أي أرض أخرى ورغم قلتها، قصائد تفتقر للحماس، خابية العواطف، إذا ما قورنت بتسبيحه الشجي بفلسطين.

أدى تطور الطبيعى إلى المدلول التاريخى إلى انفصام الرابطة الجمالية بين الذات والأشياء، ففي المنفى تحسس كمال ناصر مشاعر العجز، وتوهجت إرادة العودة بلا معين من قوة، فالحرمان الذى يعانيه تعبير مؤلم عن الرغبات التي لا يستطيع أن يحققها، أنه حرية منقوصة، ومس القنوط أعماقه مسا فتدهورت القيم النبيلة التي كان يتغنى بها، لم يبق غير الحقد، وبخروجه من أرضه بدأ رحلة التيه والضياع، لم يبق من شيء إنسانى بأعماقه غير حب عظيم اكتوى بناره، كنه لبلاده منتظرا اليوم الذى يعود فيه.

أيها الشاطى الجـريح بصـدرى
لا ترفـرف بـالعجز في مقلتيـا
لست أقوى على المجيء هوانـا
أو تقـوى علـى المجـيء إليـا
بيننا اليوم هـوة مـن عـذاب
فغرت شدقهـا ضـلالا وغيـا
عمق الشوق جرحها في خيـالى
وأراهـا تميـد شـيا فشـيا..
كيف نجتازهـا وأنـت جنـاح
سـرقته الأقـدار مـن جانحيـا
وعلى أصغريك من ذل عمـرى
خفقـات تحيـا علـى أصـغريا

نحن في الـــذل توأمـــان أضاعـــا
خافقـــا نابضـــا وثغـــرا شـــهيا

أنا حسبي والبحر يصخب فيـــا
قطـــرات عـــزت علـــى شـــفتيا

لســـت أقوى على المسير فقلبي
شـــــدني رهبـــــة إلى قـــــدميا

وتسمرت بين أجفـــان حقـــدى
وتـــرا أخرســـا وحلمـــا شـــهيا

يـــا يـــدى المديـــدتين إليـــه
ناء عـــبء الحنيـــن بين يديـــا

واعترى موكب الفـــراغ عيـــاء
فتـــهـــاوى يأسا على ساعديـــا

صـــلبتني هواجســـى وظنـــونى
نظـــرة عـــبر رملـــه تتفيـــا

فالدموع التي تسيـــل حنينـــا
بـــين عينيـــه خضـــبت وجنتيـــا

فكـــأنى وقـــد بكيـــت عليـــه
في سعير الحرمـــان أبكـــى عليـــا

أيهـــا الشاطـــئ المشـــوق إليـــا
أنـــا أهـــواك باكيـــا مبكيـــا

وعـــويلا يشـــدو علـــى أذنيـــا
وهـــــديرا يـــــئن في مســــــمعيا
فكلانـــا في البـــال حلـــم نـــبي
مـــات في أرضـــنا ليبقـــى نبيـــا
ومصير علـــى جـــراح الأمـــانى
وسنمضـــى لـــه ســـويا ســـويا

(حرمان)

عن امتداد هذه التجربة، يحدثنا كمال ناصر، في مذكراته "على صدوركم باقون" كان البحر هو أول شيء أريد ان أراه، وألمسه، فالبحر بالنسبة للذين كان قدرهم أن يقطنوا في المناطق الجبلية وهى بقية ما تبقى من فلسطين بعد هزيمة ١٩٤٨ يمثل شوقا خاصا، وحنينا عجيبا، عبر عنه شعراء المرحلة أروع وأخصب تعبير، الشاطئ والساحل والفردوس المفقود والبحر السليب وغيره من التعابير..

كانت الشمس تأذن بالمغيب... كل شيء هادئ وشاحب وكئيب إلا البحر الذى كان يرغى ويزبد ويصخب بشكل يلفت النظر، وغير مألوف... خيل إلى أن البحر يرفضنا ويرفض مجيئنا، وكأن أمواجه تبصق في وجوهنا احتقارا واستهانة وخفة بنا.. اعترانى شعور كئيب، اصطدم بكل الحنين الذى يجيش بصدرى للبحر، وشعرت بضيق وأنا أسير نحوه لأمسح وجهى بمائه المالح المر، وأبكى.. وأبكى.. وأبكى".

ويعود كمال ناصر في صفحة أخرى من هذه المذكرات ليلخص هذه التجربة ويركز على نتائجها، فحينما بدأ يمسح المدينة "يافا" حيا حيا، شارعا شارعا، سمع كل حجر يجهش ويسأل ويشتم.

لقد انقطعت أواصر الصداقة الحميمة بينه وبين الأشياء، ولم يعد يأنس السعادة والبهجة والخلود في مظاهر الطبيعة المحيطة، ولم تعد تملأ مشاعره بأحاسيس الانتماء والارتباط والقوة والإنسانية، لقد توقفت الطبيعة عن إسعاده وأصبحت مصدرا للتوتر والقلق، لمشاعر العجز واحتقار الذات، ومن النزوع التاريخي اتجه التأمل لا إلى اكتشاف الجميل بل لاكتشاف الدميم والقبيح والمؤلم، تخلت الأشياء عن سحرها وهجرته، وفرغ الكون من حيويتها، وابتلعه فراغ العالم ليواجه الوجود متعريا من الألوان والدفء والحرارة وتحسس بمزيد من الانقباض توحده ووحدته وضياعه:

أنا أنسيت في الرمال وسادى
والصغير العظيم من أشيائى
أنا أنسيت عند بحرك قلبى
صامدا للعذاب يبكى ورائى
أنا كلى لديك عار نزوحى
لم يخلف معى سوى أشلائى

(أنشودة الحقد)

وبالتدريج، يتحول الخواء الخارجي، إلى خواء داخلي "شاهت معانى الكون واختلطت في خاطرى حتى تشوهت" وافتقار العالم للتعدد والألوان والروائح افقار للمشاعر والأحاسيس والعواطف، فمن ترى "يملأ الفراغ بقلب.. هجرته الأنداء والأزهار"، ومن قلب هذا الخواء المعتم ينبض سؤال المصير، عن معنى الوجود، إلا أن نور الوعى لم يكف عن إضاءة جوانب التجربة الوجدانية بذباله ضوء شحيح، أن العودة للفردوس المفقود عودة إلى الذات الضائعة المقهورة، ف"لو تستجيب الأرض ثانية... يخضر في عمرى لها نبت" ففي قلب التائه ظل جزء صغير كل الصغر يقاوم، ويناقش، يرفض ويتحدى، باحثا عن الأسباب متعلقا باستماتة بحبال أمل يائس في مستقبل غائم المعالم غير واضح الحدود.

تناقضات كونية:

طموح كمال ناصر الإنسانى طموح فائق للمألوف، يتعدى كل المقاييس المتعارف عليها لحدود العقل. إن رغبات كاليجولا في القمر تعد رغبات متواضعة إذا قورنت بوجدانيات كمال ناصر، ففي الخمسينيات، وقبل أن تتكشف مشاعر الغربة، يظهر في قصيدته "أذاكر بلدتنا القديمة" (١٩٥٨)، جانبا غريبا من تصابيه البشرى للإلهى، هذا التصابى اللامعقول الذى تحد من جنوحه الصياغة المنطقية للقصيدة، والتنبه المدرك الذى احتفظت به رؤيته عن استحالة تحقيق الخوارق لقد كان يعى أنه "لا يستطيع" وإلى هذا الوعى يعود الفضل في انتشاله من المصير الذى انتهى إليه كاليجولا، فما الذى كان يريده على وجه التحديد، ويعى في الوقت نفسه عدم قدرته على تحقيقه.

" لـو كـنـت أستطيـع
أن أسـمـر الربـيـع
في جوانـح الحيـاه
في غفـلـة عـن الإلـه
أعـقـده بمئـزر الخـلـود
فيستـوى الخلـود للجميع"

. . . . . .

لـو كنـت أستطـيـع
أن أصلـب الزهور في الحقول
شهيـة لا تعـرف الذبـول
فأسكب العطور في جفونها
خالـدة تعـبـق بالذهـول
والـشـوق والفـضـول

. . . . . .

لـو كـنـت أستطـيـع
أن ألـمـلـم النـجـوم
مـن بيـادر الـغـيـوم
أنثرها في دربنا الشقى بالوجوم
وأن أمـد مخلبـى للـردى
أفـرق المجهـول في دنيا الردى
أعيد للقلب الذى هوى وجيبه

لقد تميز دائما، بخصوبة المشاعر التي تضيق بالناموس الكون الصارم، وتتململ بمعاناتها من قيود الأبعاد الأصلية، وبالجرأة على تأمل ما وراء الأسوار اللامجدية، وإن اتسمت مغامراته الوجدانية بمراقبة عقلية حذرة متوقيا الانزلاق إلى مهاوى العدمية.

لقد كان له صلف الكبرياء العنيد فاحتفظ لنفسه بدور المراقب الواعى المدرك، دون أن يتنازل ليضع ذاته محلا للتجريب والممارسة والوعى الفاحص، وبلا ريب هي غفلة جميلة منه، أن يسمو بنفسه متجاهلا صفته البشرية متناسيا أنه لا يتميز عن هؤلاء الناس الذين يطلب لهم الخلود، ويتمنى إنقاذهم من النظام الوجودى الباتر، وغاب عن ذهنه أن يدرك زيف الموقف المتعالى المتكبر والموهوم اللاذ به من الطوفان.

ولظروف موضوعية وخارجية بحتة. آن الأوان ليحنى هامته النبيلة لنصل الزمن، فتجرى دفعة واحدة ومباغتة على المنحر، فيدرك ماهيته الزمنية إدراكا مفاجئا قاتلا "أنا عشر من السنين طوال... تائهات في غيهب الظلماء"، لقد ارتد نهر الزمن إلى صدره، متوقفا عن التدفق في مجراه المألوف والمعتاد، وغير المحسوس. وبدأت الرؤية الوجدانية تنوء تحت ثقل جسامة الشعور بالزمن، بالانصرام والموت، وتلفت إنسان كمال ناصر بدهشة خائفة يتلمس المعنى في دوامة الزوال والفناء القادم.

ما العمر.. ما معنى الوجـــود ولم
جئنـــا جميعـــا لم أنـــا جئـــت؟
ما البذل ما معنى الفـــداء وهل
تسمو الدنى لو كنـــت ضـــحيت؟

ما المجـد مـا التاريـخ أصنعه
هل كـان يجـدى لو تكلـلت؟
البعـث والأيـام والمـوت
مـا البعـث والأيـام والمـوت؟

(البعث والأيام والموت)

توثبت وحوش المشاعر الحبيسة منطلقة من أقفاص المنطق، وبدأ يعى نفسه كإرادة متعذرة، وحرية مستحيلة "من غير إذنى كان لى جسد بل قبلما كونت أعدمت، حسبى من الدنيا ولهفتها.. أنى بدنياها وما شئت"[٧]، إنها مجرد لحظة انتظار لا أهمية لها متوترة بين لحظتى الميلاد والوفاة، "عمرى انتظار"[٨]، وبهذا الانتظار الكابى انعدمت الرغبات وانتفت الإرادة، وانهار النظام الرتيب المعقول للوجود، وبدا الهزلى والمضحك في ثنايا الحياة البشرية الزائلة، كما أنه جريمة إنسانية "في كل تمثال يطل الله والإنسان، يستغفران في دوامة الأنا... جريمة الدنى.. جريمة الإله والإنسان"[٩].

الحقيقة الوحيدة التي تبقى عليها التجربة في عالم الوهم هي الموت، فأى علاقة حقيقية من الممكن أن تربط بين ذات هشة وعالم فانٍ، الذات كاختيار دائم لبدائل تتساوى في الأهمية، كحرية لا مجديةً، وأى

---

(٧) قصيدة البعث والأيام والموت.
(٨) قصيدة انتظار.
(٩) قصيدة المتحف الكبير.

مشروع جدى يمكن أن تمارسه الذات، وكل مشروع فعل وكل فعل مستقبل، وكل مستقبل فناء ما قيمة الكد والتضحية والفداء والعناء، أمام الموت المتربص الواثق من التهام فريسته، وبانهيار صرح القيم فقدت الدنيا ألوان العظمة والجلال القديم:

لم يبق للدنيا وقار
لم يبق للدنيا وقار
المجد
والتاريخ
والأحلام
عصفور وطار
فمضيت في جنباتها
بالوهم أفتعل الحوار
لأقابل الدنيا بوجه مستعار
لا شيء يربطني بأعماق الوجود المستعار

(انتظار)

بإصرار يتم قبول إنسان التجربة الوجدانية للشرط الوجودى المجحف "لكنني أسير خلف لعنتي، أسير خلف ظلي[١٠] يحملني الضياع عنوة، وشهوتي للسير، للزوال للرحيل" إن مدركاته للاحقيقة الكبرى ولأفعاله المزيفة (ظلي) لم يمنعه من أن يغز السير باتجاه الموت، محاولا أن يجد تبريرا ما، متلمسا العزاء وأعطافه المتشوقة للخلود تبذل محاولات

---

(١٠) قصيدة: رسالة من دوفيل.

يائسة لنزع الجرثومة من القلب، ولكن هيهات، فمحاولات كمال ناصر لتبرير مجانية الوجود الإنسانى بالنسبة له لم تتعد حيز التمنيات الشقية البائسة، لقد حرم من أساليب التعزية البسيطة "أريد أن أعيد مولدى، أريد أن أعيده في الأبد، فأنجب" لقد كان هذا مجرد حلم سقيم، تنازل عنه سريعا، منصرفا إلى محاولة تجديد ارتباطه القديم بالعلاقات الاجتماعية، المرأة – الحب، المرأة – الأسرة، ولما أعوزته حيل وإمكانيات كازانوفا توصل إلى المرأة – الأم، ويبدو أن العلاقة الأخيرة على الرغم من توافرها "فطالما إليك كنت أهرب" لم تستطع أن تحقق الأمان الروحى المطلوب وأن تقدم له المبرر الكافى لقضاء العيش، لقد سبق له تجريب الذوبان في الطبيعة "أريد لو أرق كالغمام في الرؤى وأعذب"، إلا أن حساباته أرجأت هذا الحل إلى حين، ولما أعياه البحث "قد بدأت أتعب" توصل إلى الفن "لعلنى في الحرف استعيد حريتى، وصبوتى وما أحترق، من جسدى الأسير في القيود"[١١]، لقد نظر فيما مضى إلى الأدب والفن من ناحية تأثيره الاجتماعى باتجاه القضية العامة، ولقد شعر وقتها بمسيس الحاجة إلى من يسمع صوته ويتجاوب مع نبراته. شاعر جاءكم جريح الأمانى... رب جرح يسيل من أوطانه، فاتركوه يرتل الشعر شوقا... ويحيى النبوغ في إخوانه"[١٢]، لقد تحول الفن من عطاء عظيم في سبيل الآخرين، إلى منة يقدمها لذاته أولا واضعا في اعتباره مشكلته الخاصة قبل أي اعتبارات أخرى.

---

(١١) قصيدة من لا مكان في الدنى.

(١٢) قصيدة الزعامات والشعب والطين.

إلى أي مدى انساق إنسان كمال ناصر وراء وجدانياته، التي تحتم عليه التمادى في الانفصال، ورفض المهزلة الكونية، كما هو متوقع طبقا لتصورات المنطق العبثى، هنا يبدو كمال ناصر مختلفا أيما اختلاف، بوعيه لبواعث وأسباب تغربه الروحى وعذابه النفسى. وتطورت رؤيته الوجدانية في اتجاه مضاد عن طريق هذا الوعى.

عالم كمال ناصر عالم قائم – في مدينة الزمن بمنطقها اللامعقول، إلا أن ما يكثف من وطأة شعوره بالعبث واللاجدوى، الطلاق البائن بينه وبين الأشياء، المكان والأرض، لقد فقد اتصاله بالوطن المضيع، كما أن أحلامه في أرض الميعاد تمنيات بعيدة التحقق بالنسبة له لظروف واقعية لم تغب عن تصوراته، وكيف يشعر بالانتماء إلى التجمعات الإنسانية، وهو المنتمى إلى مجتمع الشتات بلا وطن، وفى أي أرض يمد جذوره وهو المنفى عن جميع الأوطان، المغترب عن جميع الأماكن، لقد حرم من الانتماء إلى أرض، ومن علاقات اجتماعية تتأسس على هذه الأرض، وفي رسالة من دوفيل، تتبلور تجربة الغربة حول قدرته على النظر إلى العالمين، المعقول واللا معقول في آن التأمل الشامل، إن الارتباط بمكان لا ينتشل الوجود الإنسانى من التردى في هوة العبث كليا، وأن كان الانفصال عن المكان يؤكد على الحس العبثى ويقويه، ومواطنو دوفيل خاضعون بالضرورة لشرط الوجود الإنسانى المبدئى، خطواتهم تائهة على مفازات التاريخ البشرى، كما أنهم لحظة آيلة للزوال ككل الناس، وحقيقة مزيفة وحرية أكذوبة، ومع ذلك فهم سعداء، يستمدون البهجة من انتمائهم السحرى المسرور لأرض ولوطن.

حبيبتي
أكتب من دوفيل ...
أنا بها، ولست فيها أنني
بالرغم عني عابر دخيل
لا لغتي تسعفني، ولا غربتي
تمنحني في وحشتي الدليل
الناس كالنجوم في الغيوم تختفي وتنجلي
تمضي، ولا تمضي إلى سبيل
تسير في الأرقام. في دوامة الزحام ... لا هية
تحسبها كأنها تسير للمجهول
لكنها سعيدة الخطى، في دربها الطويل
لا عريها يجرحها، ولا تاريخها المستوحش الذليل
تستوعب الحياة لذة في عمرها القليل
وتحبس الشكوى لدى أعماقها
وتحبس العذاب والبكاء والعويل
تضيع في دوفيل
تستمرئ الممات مثلما ... تستمرئ الحياة في دوفيل"

ليكن الاختلاف بين كمال ناصر ومواطني دوفيل أن هؤلاء احتفظوا بمواطنيتهم بينما فقد هو مظلته، مظلة الوطن أو "المظلة الضائعة" كما شاء أن يسميها، ومظلة الإيمان ومظلة العواطف على تباينها وتعددها. وتسبب ضياع مظلته في ازدياد حدة مشاعره بالمأساة الكونية. ومن

وعيه بمأساة المصير الإنساني ووعيه لأسباب تغربه الروحى ازدوج عالمه، إنه يعشق نفسه، ويرفضها، يرفض العالم ويقبله، يخيفه الموت ويقبل على التضحية يدرك وحدته ويبحث عن التواصل، يقر عجزه ويعلن النبوة، يكتشف قيوده فيتمرد عليها، تتحطم أسلحته فيقاوم ولا يستسلم.

وكنت أدرى أن ذاتى هشة تلجمها القيود
وأن روحى في أسارها الحتمى لن تجود
لكننى أردت أن أكون ... أردت أن أكون
أردت أن أنشق عن عجزى فأعبر الأتون
أردت أن أعيد مولدى بالموت من جديد

(النبى العاجز)

لم تفارق القوة صوته، ولم يستسلم لوهن، ولا يصل بتجاربه الشعرية إلى الحدود التي تتنكر للإنسان كإمكانية، وكفعل ممكن بصفة مطلقة، ولم يبخس الإنسان قدره، فإنسان كمال ناصر حين يحتفظ بالزمن، يحتفظ بالوسط الموضوعى الذى يسمح للإرادة الإنسانية بالنمو، والتحقق، فزمن التجربة الشعرية لكمال ناصر ليس هو زمن فارس "صلاح عبد الصبور"، "هل تدرى في أي الأيام تعيش، هذا اليوم الموبوء هو اليوم الثامن، من أيام الأسبوع الخامس في الشهر الثالث عشر" فالفارس القديم حين يتحلل من الزمن، يحطم بمنطق البناء التصورى لمجموع تجاربه الشعرية القدرات والعواطف الإنسانية كافة، فالرغبات تتحول إلى أمنيات لأنها بعيدة المطال في السماء، والتمنيات تتحول لوهم باستوطانها أعالى الهضاب، والأوهام تصير أحلاما بعد أن تفقد كل صلة لها بالواقع،

فلا تطرق سور النفس، إلا حين يظلم المساء، كأنها أشباح ميتين من أحبابنا، والأحلام ما تلبث أن تصبح يأسا قاتما وعارضا ثقيلا، فالفارس القديم مدحور مستسلم لاندحاره، لا نكاد نستشف بارقة تعارض بينه وبين ذاته. إن كفره بالحياة، كفر بالقيم التي تمكن الإنسان من السيطرة وامتلاك العالم، "أهدابنا أثقل من أن ترى، وإن رأت فما يرى العميان، أقدامنا أثقل من أن تنقل الخطى، وإن خطت تشابكت ثم سقطت هزأة كبهلوان" أما كمال ناصر، فإن الهوان الوجودى لم يذل كبرياءه، والكبرياء هو كل ما بقى من حطام الإنسانية في يده ولكنه مظلة بلا غطاء، لقد ظل مرفوع الهامة منتصب القامة يتحدى فكرة الشر التي بنى الله على أساسها العالم "أردت أن أروض الفناء والبقاء والقدر" ولكن ... لنعترف به نبيا كما أراد، ولنقدر معه أنه نبى عاجز، يبشر بدعوة مستحيلة، حيث لن يتمكن من إنقاذ البشرية من الشر المطلق الأصيل في طبيعة الوجود، وأنه أسرف فيما يريده، وهو الذى لم يعد يطلب المنى، ولا عادت المنى تطلبه، وماذا بإمكانه أن يقدم من حلول للمعضلة البشرية الجوهرية، يجيب بها على الصيحة المتعذبة بأعماقه "تريد أن تكون. فلتكن وأنقذ البشر. وأنقذ البشر" فعلى صخرة القدر كان لابد أن تتحطم النبوة وأن يغترب النبى بطموحه المجنون لحرية مستحيلة الحدوث:

"وصرت أدرى عندما أتيت لا يسترنى الرداء في مدينتي
لأحزم الحياة في البركان
أننى سأنثنى، أعود لا يقبلنى أحد
وعدت من مدينتي مدينة الضلال والجحود

قلبى على أشلائها وكبرها الموؤود
لأسمح بالرؤى في داخلى تفلسف الزوال والوجود
ماذا أردت أن تكون؟. ماذا أردت أن تكون
فردد الصدى في داخلى.. أردت أن أكون.. أردت أن أكون
ماذا أردت أن تكون

.. .. ..

هل أنت ما تريد؟ هل كنت ما تريد"

(النبى العاجز)

إن رغبات ذلك النبى للمنح والبذل والعطاء على هذا المستوى الوجدانى، رغبات فاشلة وأمنيات عسيرة، تجبره هو نفسه للاندماج في المصير البشرى المعتم، فيتعرف على ذاته غير المتميزة عن القطيع البشرى، الذى يجتر تاريخه على مسرح الكوميديا الإلهية "هنت في ملعبه وهان، واغتال لى براءتى فلم أعد إنسان، لم أعد إنسان" وعلى هذا المستوى أيضا يتجرد الإنسان من إنسانيته من عظمته، وجلاله وكبريائه:

"نحن الحشرات
لا نعرف شى ... لا ندرى شى
تتراقص فينا الآلام
والأوهام
وتمر علينا الأيام نحن الحشرات
لا نعرف شى

نأتي للدنيا أصفارا
ونعود فنرجع أصفارا
لا نعرف شى
لا نعرف شى
(البهلوان الأعظم)

إلا أن التجربة الشعورية التي توصلت بازدواجية الرؤية إلى مسئولية الله والإنسان عن التعاسة البشرية، استطاعت أن تقدم الأبواب السوداء المغلقة والمحكمة الإغلاق، والتي تحطمت خلف رتاجها الموصد كثير من التجارب الوجدانية. لقد بنى كمال ناصر نتيجة لوعيه الثنائى بمأساة الوجود عالمه على فكرة الشر، كفكرة مركبة من المطلق والمحدود، أما الشر المطلق فلقد انتهى بالإنسان إلى الحشرية، والحيوانية بسلبه القدرة على الاختيار الحر، فالكبرياء البشرى مهما بلغ في رفضه لبرودة مصيره الحتمى ليس بمقدوره التنصل منه أو التمرد عليه، إلا أن الجمال الذى لا يمكن تحصيله من الأبدى يمكن تحقيقه في الزمن المتاح للإرادة، إن التجربة الشعرية تبدأ لا بالتصدى للصفة الأزلية الشريرة للوجود وإنما للبنية الأقل شرا، للوجود كمعطى إنسانى، كجريمة إنسانية – كمجتمع– كواقع متاح رهين بإرادة الثورى لا النبى.

وواقع المدينة الإنسانية هنا واقع حيوانى، إنها مدينة قائمة على استغلال الأقوياء للضعفاء، الجائرين للمستسلمين للجور، مدينة طافحة بالشر والجريمة، إلا أنها تأنس لتناقضاتها، وتهضمها، وتستكين لمزيفى إرادتها، راضخة لمستعبديها:

١- وجئت للمدينة الجحود أطرق الأبواب والجدران
فلم أجد أحد
وسرت في الخرائب الثكلى على قارعة الزمان
لا يبصرنى أحد
ذرائب يرعى بها الضباب والدخان
تناثرت من حولها الذئاب والقطعان
فاعتنق الضدان
وعششت في صدرها الديدان والغربان
والتحمت كأنها جسد

(النبى العاجز)

٢- المتحف
الحب في محرابه يستمرئ الطغيان
المتحف الكبير صولة وصولجان
المتحف الكبير خطبة ومهرجان
دبابة وديدبان
أسطورة لفقها الدعاة خدعة وحاكها الكهان
وزيفوا في كل ركن غامض جثمان
ودفنوا جثمان

(المتحف الكبير)

تؤكد التجربة الوجدانية لكمال ناصر، أن السعادة البشرية ممكنة، وأن سعادته ليست متعذرة، لقد أصبح يتمنى عالما كدوفيل، للحظتي الحياة والموت على أرضه نفس الوقع السار، والاطمئنان الزائد بالانتماء لأرض تصون البقاء، وتحفظ التاريخ وتمنح المعنى، وتوفر السعادة، "لا شيء مستحيل" فالجنة التي يصبو إليها جنة ليست بعيدة عن العين، وليست مستعصية على اليد، كائنة حيث لا وجود للمنفى وللخيمة، وحيث لا وجود لتناقضات، ولا محل لاستكانة. إنها الفردوس المفقود فردوسه المفقود.

يطل عالم كمال ناصر على مشارف اللامعقول، ويقع عند أقصى حدود الممكن ويكمن هنا سر عذابه الذاتي، لقد عرف نفسه كنبي عاجز، وتطلع إلى نفسه كثورى، وفقد هويته الوطنية والكونية، وضاعت خطواته الطريدة في صحارى الزمن، منبوذا من كل وطن وواصل عطاءه "من لا مكان في الدنى" غريبا عن الناس، متشوقا إليهم، وسقط عمره وذوت أوراق الشباب "وانطفأ المصباح لم يبق فيه زيت" وفي قلب العتمة ظل الضوء الأخضر الشاحب، الأمل اليائس المتكبر المعاند يلقى بشاعة المختنق على أرض الأموات، هذه الأرض التي تتنفس بالاغتراب، والتي تتهدج للموت بسؤالها عن الوطن والأهل.

"وبينما أسير في مدينة الأموات
يقتلني الضنا
تجرحني ال" أنا"

وكبرياء العجز فاته في موكبي النجاه
لمحت طيفا ينتهك الفنا
يدب كالسنا على الدنى
ألقيت نفسى أعبر الفلاه
أمشى خلفه
ألفيت نفسى أعبر الحياه
أسير كالإيمان في مدينة الأموات
أجيش بالوجود والمنى
لمحت طفلا ... عمره سنه

(الضوء الأخضر)

وبوعيه بأسرار اغترابه، جاهد للخلاص، وانضوى تحت حركة السلاح، محاولا استعادة علاقاته الجمالية بالعالم، وارتباطاته الاجتماعية في العالم، ناشدا العودة إلى أرض اغتصبت، ووطن فقد بضياعه وحدته النفسية، وانكفأ على ذاته يجتر الجراح ويعلنها ذائبا بمصيره في المستقبل الإنساني "فموتى حياة الجميع" وجاهد... وجاهد، ولم يكف عن الجهاد إلى أن استشهد.

القاهرة ١٩٧٦م

الفهـرس

زمن الشهادة ٧

– الإنسان والقضية ٩

– سنوات المراهقة ١٣

– النكبة ٢٤

– الأردن على الصليب ٣٣

– النكسة ٣٩

– زمن الشهادة ٤٢

الحس الطبقي ٥١

الفكرة القومية ٨١

المسيحي المنشق ١٠٣

– مشكلة الفن ١٠٨

– محنة أخلاق ١١٩

غربة الملتزم ١٣٣

– سنوات الإحباط ١٤٢

– مسألة الارتباط ١٥٠

– الفلسطيني التائه – والفردوس المفقود ١٦٨

– تناقضات كونية ١٧٩